هيثم بهنام بردى

أرض من عسل

مجموعة قصصية

أرض من عسل

هيثم بهنام بردى

أرض من عسل

مجموعة قصصية

دار الحوار

- ارض من عسل
- هيثم بهنام بردى
- جميع الحقوق محفوظة للناشر
- الطبعة الاولى : ٢٠١٢
- الناشر : دار الحوار للنشر والتوزيع
- سوريا – اللاذقية

الشمس أجمل في بلادي من سواها،
والـ ظلام
حتى الظلام
هناك أجمل
فهو يحتضن العراق

بدر شاكر السياب

الملاذ السردي وطعم الحكاية
هيثم بهنام بردى يحرث أرضاً من عسل

محمد صابر عبيد

تأتي مجموعة القاص المبدع هيثم بهنام بردى الموسومة بـــ ((أرض من عسل)) لتعزّز الرؤية النقدية الإيجابية التي رصدت تجربته السردية على مدى أكثر ثلاثة عقود، وتحتوي هذه المجموعة على خمس قصص تنطوي على تجانس كبير في فضائها السردي القصصي الكمّي والنوعي، على الرغم من أنها كتبت في مراحل زمنية متفاوتة نسبياً من حيث زمن الكتابة أو النشر، لكنها ذات نسق سردي متماثل ومتداخل في وعيه القصصي وهو ما برّر للكاتب جمعها في مجموعة قصصية واحدة، إذ لا بدّ من ملاحظة أن القاص أعاد كتابة بعض قصصها على النحو الذي يستجيب لآلية رؤيته في جمعها ضمن سياق واحد، كي تمثّل مرحلة متقدّمة من مراحل شغله القصصي .

قصة ((حكاية)) التي تصدّرت قصص المجموعة تقوم على تشكيل عتبة عنوانية تحيل على الحكي، محتفلة بكل ما يمكن أن تنتجه هذه العتبة من فضاءات محمولة في ذاكرة القراءة التي تتصدّى لها، إذ إنّ مجرّد ترك العتبة العنوانية لهذا الدال المفرد المنكّر (حكاية) فإن الذاكرة القرائية ستقوم مباشرة باستحضار كلّ الذخيرة السردية والكنز الحكائي الكامن في الأعماق، وتهيئته لاستقبال (حكاية) تتحدّر من ثريا العنونة .

وستظهر قيمة التشكيل العنواني من داخل القصة حين نجد أنها تنهض على آليّة التوليد الحكائي أو التداخل الحكائي، إذ تتضمّن الحكاية الإطارية/الحكاية الأصل التي تؤلّف تجربة القصة حكاية أخرى مستعارة من التراث الحكائي الشفاهي (حكاية بنت الفلاح والبلبل)، من أجل تحقيق نوع من التوازي السردي بين الحكاية

المركزية والحكاية المستولدة، وتحقيق التضافر المطلوب بين نسقي السرد في الحكايتين .

تعتمد قصة ((حكاية)) على العرض السردي ومسرحة الحدث القصصي، وذلك باستعمال أسلوبية اللوحات السردية التي تستقلّ في درجة من درجات تكوّنها داخل كل لوحة، ومن ثمّ تنفتح كلياً على اللوحة اللاحقة لتسهم في إنتاجها وتغذيتها بالحكي والوصف، وصولاً إلى تحقيق وحدة قصصية تربط اللوحات كلها بخيط سردي مشترك .

تشتغل القصة في حساسيتها السيميائية على تمثيل تجربة القهر والاضطهاد والمصادرة والنفي، مقابل البحث عن الحرية والكفاح الإنساني من أجلها، بأسلوبية تشكيل رمزية تموّه المكان والزمن والحادثة القصصية ضمن رؤية شاملة يمكن أن تحدث في أيّ زمان وأيّ مكان وتحت أيّ ظرف، بالرغم من إمكانية قيام القارئ بالإحالة على الزمن الراهن والمكان الراهن وذلك لاحتواء القصة على إمكانات عصرية في جوّ الحكاية ومناخها .

تنفتح القصة الثانية في المجموعة الموسومة بـــ ((الرسالة)) منذ عتبة عنوانها على محمول سيميائي غزير تشبعه أحداث القصة، تتضاعف هذه القيمة في المفتتح الحواري الذي ينتج أسئلة القص واحتمالاته ويتضمّن مقولته المركزية، ويتسيد الراوي الذاتي الحراك السردي في القصة مستخدماً شعرية الوصف بأعلى طاقة تعبير وتصوير وتشكيل ممكنة، وهي تنتج فيما تنتج بناء شخصية القص ((الشخصية المهمّشة)) في مخيال الراوي الذاتي.

تتميّز القصة باستثمار آلية الاسترجاع بدينامية سردية مناسبة، وتسعى عبر مشاهدها إلى الكشف عن إنسانية الشخصية، ولاسيما في مشهد احتضان شخصية ((ليث)) ــ المصنفّة اجتماعياً ضمن فئة المعتوهين ــ للطفلة اليافعة ومحاورتها والحنو الزائد عليها، فضلاً على التماثل الإنساني العالي في شخصيات القصة الأساسية ((عامر/ليث/الطفلة/الطبيب)) بالرغم من تفاوت تشكيلها الاعتباري والعمري والمهني .

ثمة اشتغال سردي مميّز على رمزية الدمى التي يصنعها ((ليث)) بوصفها تعويضاً نفسياً عن الفقدان ومعادلاً موضوعياً لسوء أخلاق البشر وطبيعة الحياة، وهي في دلالية القصة بلا شك صناعة حياة أخرى من الدمى موازية للحياة الراهنة، وتأتي تسمية الدمى بأسماء أنثوية تعبيراً عن حالة الفقدان والخسارة والإحساس بالضياع واللاجدوى .

تستخدم القصة تقانة الرسالة، أو ما يوصف اصطلاحاً بـــ ((السرد الرسائلي)) حين تتوافر الرسالة المكتوبة في القصة وتؤدي دوراً سردياً في اللعب بعناصر السرد، ويتضمن هذا النوع من السرد في القصة حب الاستطلاع المؤجل والمعلّق في الرسالة، إذ كشفت الرسالة التي تلقاها (عامر) صاحب محل بيع الأقمشة الذي ارتبط بصداقة اكتشاف حقيقية لشخصية ((ليث)) بعد موت ليث، عن معرفة ليث العميقة بكل شيء داخل محيط الحكاية وخارجها، وبأنه فيلسوف لا معتوه كما تعبّر عن ذلك شخصيته الخارجية .

الرسالة السردية هنا التي ظهرت إلى الوجود السردي في القصة بعد موت (ليث) هي حكاية مخبأة داخل الحكاية الأصل، وأدّت دوراً بالغ الأهمية في اختزال مساحة السرد وبلوغ غاية القصّ بأعلى درجات التكثيف والاختزال. واشتغلت القصة أيضاً على توظيف طاقة الموروث الشعبي على صعيد الملفوظ والمكتوب والمتداول والمتصور.

إنتهت القصة بعتبة اختتام مفتوحة يمكن أن تحيل على أكثر من نهاية بحسب قراءة القارئ ورؤيته وحساسية تلقيه، وبهذا تكون القصة قد حققت شروط التكوين السردي في معظم طبقاتها القصصية، بلغة ثرية، وحسّ سردي متميز، وصنعة واضحة وناضجة، ورؤية عميقة لآليات التشكيل والتصوير والتدليل السردي .

أما قصّة ((النبض الأبدي)) فإنها تستند في تشكيل رؤيتها السردية إلى شعرية الأداء اللغوي وهو يفيد كثيراً من آليّات التعبير الشعري، وتقوم في تشييد بناء عمارتها القصصية على محاورة تخييلية بين ثلاث شخصيات بالغة الأنسنة

والتعاطف والتلاحم والانسجام، داخل المساحة التي حددها الراوي كلي العلم وهو يروي مروياته بإحاطة شاملة .

الشخصية الأولى هي شخصية ((الجبل)) التي تخضع لبنية وصفية مركّزة ومكتظّة بالمعنى والرمز والأسطرة، وشخصية ((الراعي)) وهو ينهض بمهمة تسيير الحراك السردي في القصة وتفعيل أدواته وتسخيرها لإنتاج المقولة القصصية التي تزمع القصة تجسيدها في ميدان السرد على أكثر من مستوى .

الشخصية الثالثة هي شخصية ((الشجرة)) التي تستدعي الميراث الديني والأسطوري والتاريخي دفعة واحدة لترسم سياستها وتقيم رؤيتها، فهي شجرة آدم، شجرة التفاح المثمرة على نحو ثري، وهي الشجرة الأم التي تناغي ابنها (الراعي) وتؤنس وحدته وتقدّم له النصائح وسط مراقبة الشخصية الأولى (الجبل) .

القصة تجتهد سيميائياً في إعادة إنتاج الموروث ضمن صيغة قصصية تؤدي فيها اللغة القصصية دوراً مهماً، من أجل الارتفاع بمستوى الصنعة القصصية إلى أعلى مرتبة ممكنة في ظلّ التركيز الوصفي العالي المنتج، الذي يتماهى بالسرد والحوار في معادلة سردية تسعى إلى تحقيق مزاوجة عادلة بين عناصر التشكيل السردي في القصة، وهي تحكي قصة البقاء الأزلي للمكان والشخصية والمعنى في إطار الهيمنة الموضوعية والدلالية التي تشتغل عليها عتبة العنوان (النبض الأبدي)، حيث المزاوجة بين حيوية (النبض الأبدي) ودلالة (البقاء الأزلي) في سياق التشكيل والتعبير والتصوير والترميز .

تذهب قصة ((حكاية عروة بين الورد وما جرى له في أحشاء الغولة)) نحو قضية اللعب الثلاثي بالزمن السردي، إذ يعرض الراوي كلي العلم ثلاثة أزمنة تتوازى وتتقاطع في شخصية عروة بن الورد الشاعر الصعلوك المستدعى من عصر ما قبل الإسلام، الزمن الأول هو زمن الراهن السردي، والزمن الثاني هو زمن عروة بن الورد يحمله في حصانه وسيفه وخطابه، والزمن الثالث هو الزمن الذي تختتم به القصة حفلها السردي بعد أكثر من نصف قرن من زمن الراهن السردي على هذا النحو:

((هامش صغير في جريدة يومية صدرت في ١٦ /شباط/ ٢٥٨٤:

أثناء التنقيب عن الآثار في المدينة القديمة شرقي المتوسط عثرت بعثة آثارية على بقايا هيكل عظمي وبجانبه قطعة من حجر الحلان نقش عليه (**هنا يرقد عروة ابن الورد... أمير الصعاليك**) وعند فحص العظام في المختبرات تبين أن أغلبها مخرمة وخاصة عظام الأضلاع والكتفين. وعند التدقيق عن ماهية هذه الثقوب وجدتها شواهد رصاصات سلاح قديم موجود نموذج منه في متحف المدينة أسمه رشاشة (الكلاشنكوف) وهو من الأسلحة الشائعة في نهاية القرن العشرين وهنا وقع التراثيون والأدباء والمؤرخون في حيرةٍ شديدةٍ وهم يتساءلون.

– لمن هذا الهيكل العظمي، أهو لعروة بن الورد حقاً...؟

وهم يعلمون علم اليقين أنه عاش في جزيرة العرب شرقي البحر الأحمر.))

إذ يكشف البحث الأركيولوجي في القصة عن طبيعة المفارقة الزمنية في تلاحم الأزمنة الثلاثة وانفصالها في آن، بحيث تتحرّك على مسطرة السرد القصصي ثلاث طبقات زمنية تناظر إحداها الأخرى بسخرية لاذعة ودراما مرعبة .

القصة منذ عتبة عنوانها التي تحاكي العنونة التراثية في طولها ونمط صياغتها تنهض في فضائها التشكيلي على ما يمكن أن نصطلح عليها هنا بـ ((الفواصل السردية))، التي يمكن النظر إليها من زاوية توصيفية أخرى على أنها طبقات سرد قصصية، تعمل عمودياً من الأعلى إلى الأسفل، وأفقياً من اليمين إلى اليسار .

مثّلت الطبقة الأولى ((صوت خارق يبعث عروة إلى هذا العالم)) عتبة استهلالية مثيرة تؤسطر فعالية استدعاء شخصية عروة بن الورد إلى الراهن السردي، تعقبها فاصلة ((عروة يصاب بالدوار ويكبّر إله الصحراء))، ثم فاصلة ((عروة يتساءل أين الرجال)) التي يقارب فيها فكرة الصعلكة مع فضاء الطفولة، وهي تنتج فاصلة ((عروة يدخل إلى مدينة ويتحدّث مع صبي ظريف)) التي تشتغل

على آلية استعادة الحرب عبر التاريخ، في حركة ترميز سردية تضع الحرب في موقع الثبات الدائم بإزاء تغيّر العصور، إذ هي وإن اختلفت وسائل القتل والتدمير فهي في الأحوال كلّها تنتح وليداً وحيداً هو (الموت) .

وتُختتم الفواصل بفاصلة عنوانها ((الصوت الخارق يأمر عروة بالعودة ولكن ..؟))، في محاولة دائرية للعودة إلى الفاصلة الأولى (الاستهلالية) التي قام فيها هذا الصوت ببعث عروة بن الورد إلى هذا العالم، وها هو الآن يخفق في استرداده إذ يذهب أمره لعروة بالعودة في مهب الريح بدلالة أداة الاستدراك ((ولكن..؟))، التي تعمل بعنف سردي حائل دون تنفيذ أمر الصوت الخارق، حيث يتحوّل الصوت بعد ذلك إلى صوت عادي متنازلاً بحكم الزمن عن صفته غير العادية (الخارق) ومكتفياً بالخيبة والخسارة والأسى .

قصة ((أرض من عسل)) القصة الأخيرة في المجموعة وهي التي احتلّت عنوان المجموعة وهيمنت على فضاء التسمية الكبرى، تشتغل على التوطين السردي للمكان بآفاقه التاريخية والأسطورية والراهنة، ولعلّ ذلك يبدو واضحاً وجلياً من طبيعة التركيبة السيميائية لعتبة العنونة، وتوغلها عميقاً في مختلف الطبقات السردية في القصة .

في القصة سعي حثيث لاستثمار ملحمة كلكامش في بعض مفاصلها المتعلّقة بالمكان وتفاصيله ورؤيته، فضلاً على تشغيل طاقة المعنى السردي في عشبة كلكامش ووصفها قصصياً بـ ((عشبة الأمل))، وتكبير صورة الوطن/المكان عبر التاريخ لتطغى على أجواء القصة وتسيطر على مجريات السرد فيها .

لذا نجد أن عتبة الإقفال في هذه القصة تعيد إنتاج إيقاع الصوت الطفولي النشيدي المستمدّ من روح الطفولة على النحو الآتي:

((ـ هيا نكمل النشيد.

فأنشد الأطفال:

(أنا من العراق

أنا عراقي

العراق وطني)

وأنشد هو:

(العصفور يحب عشه الذي يعيش فيه)

وأكمل الأطفال:

(وأنا أحب العراق، مثلما أحب بيتي

وأحب العراق، مثلما أحب أهلي....)

وارتفع جسده بفعل قوة مجهولة، ونظر من علٍ، وهو مسكون تماماً بالنشوة، فهتف الأطفال.

- إنه يطير!.

وهتف أكبرهم سناً.

- كيف يطير بلا جناحين؟!.

والقوة المجهولة تدفعه نحو الأعلى برفق، وهو يكمل النشيد:

(وأحب أهل العراق)

وتهتف المدينة بأسرها.

(العراق وطني)

ومن الحالق، كانت آخر ما احتوته مقلتاه أرض من عسل يدرج فيها نحل لا يستكين.

****

"*" : **نشيد لتلاميذ الصف الثاني ابتدائي بعنوان (العراق وطني).**

فتأتي مفردة ((العراق)) بتكرارها المتنوّع والمتجانس ((العراق وطني/أحب العراق/أهل العراق/أنا عراقي)) المستوحى من نشيد طفولي عميق الحضور في الذاكرة العراقية الجمعية، لتجيب على سؤال العنونة بكلّ ما تحمله من زخم شعري

وعاطفي ووجداني وتراخي وأسطوري وملحمي، ويأتي حضور رواية ((الساعة الخامسة والعشرون)) لجيورجيو إيذاناً بتجلّي مستوى آخر للحضور المكاني الوطني، عبر التذكير بمحنة بطل الرواية الروماني ((يوهان موريتز)) الذي يعيش في الحادثة الروائية أكبر كارثة مكانية وطنية في تاريخ الرواية العالمية، وذلك بسبب الطرد والقمع التي يعانيه كلّما ادعى هوية وطنية ما، أو أُلبِس هوية وطنية ما بالرغم منه كي يحقق الآخر على جسر هذه الهوية المزيّفة عبوره نحو الحرية .

ربما تكون المقولة الأولى للقصة هي مقولة الحرية داخل المكان بوصفه وطناً، والمكان بوصفه ذاتاً شخصية، والمكان بوصفه سرداً قصصياً، في السبيل إلى تجاوز محنة المكان التي تكون فيها الأرض علقماً، والتوصّل بالمكان المعلّق في ذاكرة العنوان حيث تكون الأرض فيه عسلاً يتناوله الجميع من دون استثناء.

على هذا النحو يمكن القول إنّ القاص المبدع هيثم بهنام بردى في مجموعته القصصية الجديدة ((أرض من عسل)) يحقق إضافة حقيقية إلى منجزه القصصي، إذ إنّ الصنعة الشعرية بلغت مرحلة مهمة، والوعي بمجمل إدارة العمليات السردية قد بلغ حداً واضحاً من التبلور والصيرورة الفنية والجمالية، فضلاً على استخدام لغة سردية ذات خطاب متطوّر وناضج ومشرق يعبّر عن قدرة عالية على التشكيل والتصوير والتعبير، وثمة رغبة أصيلة في فتح نافذة السرد القصصي في قصصه على المحيط والماحول والتراث والحلم، بأسلوبية رشيقة تعتمد على البساطة الموحية والمعبّرة وتبتعد ما وسعها ذلك عن الإغماض والتعمية، وهو لا يألو جهداً في رفد المسيرة السردية القصصية بكل ما يمكنه أن يدعم الفضاء السردي ويحقق له تماسكاً نصيّاً أعلى وأكثر قوّة وسحراً وإدهاشاً.

ويمكن ملاحظة بهاء حضور الحكاية في هذه القصص، ففي الوقت الذي قلّ فيه الاهتمام بالحكاية بوصفها عنصراً سردياً مركزياً، نرى أن القاص هيثم بهنام بردى في قصص ((أرض من عسل))، لا بلّ في كل قصصه الأخرى يحتفي بالحكاية احتفاءً كبيراً لكنه مع ذلك لا يتساهل معها بحيث تهيمن على عناصر التشكيل السردي الأخرى، ولا يضعها في سجنها الحكائي الذي يمنع عليها التنفّس

التعبيري والجمالي خارج التقليد الحكائي، بل يحررها من ذاتها الحكائية ويمنحها فرصة التمظهر والحياة والحركة والحرية داخل الفضاء السردي .

حكاية

يتجول قلقاً في أرجاء الغرفة، يتشمم القدر الصدئ الفارغ، يهز ذيله ثم يقترب من بابها، ألمح وميض عينيه يقتحم العتمة ويأتيني باهراً مؤتلقا، أهمس.

– تعال

تتصلب أذناه وينظر صوبي، يتقدم ثم يقعي وهو ينظر ببلاهة في بطني المنتفخة الباهرة، ألحظ لون الدهشة والفرح في عينيه فأناغيه.

– انتظر أيها الهر الطيب، لقد أمسى قريباً، انه الآن في آخر محطة وسيأتي قريباً جداً، ستصبحان صديقين، أليس كذلك..؟

ينظر إليّ بفرح فأستتلي.

– أسميناه وعد، انه وعدي مع أبيه، أنت تجهل هذا.. منذ ولادتي كان القدر قد ساقه إليّ، رجل ولا ككل الرجال، أنت لا تراه إلاّ نادراً، لا تكتئب، سوف تراه حتى تسأمه.

الريح خارج الغرفة لها طعم العقم والحزن.. والسماء ألمحها من الباب الموارب سجادة حليبية تحبل بالمطر، والهر لا يزال يخزر بطني بعينين زائغتين، أسحب البطانية وأغطيها، ينظر إلى عيني بعتب زاخر بالخيبة، أمسد شعر رقبته برقة وحنان فيستسلم فرحاً، ما هو الفرح يا رديف وحدتي؟ أهو محطات تضيئها الأضوية الباهرة، وما هو الحزن يا عضيدي؟ أهو الصحارى المنداة بالغلسة والغموض!... تشتد الريح في الخارج، أزيح البطانية عن بطني! يموء بتواصل، أستشعر لون الارتواء الجذل في صدى موائه، أهمس له وأنا أمرر أناملي على بطني برقة لا حدود لها.

– إنه الآن في الطريق، محتمل إنه استقل آخر قطار ولابد انه الآن على مشارف الغرفة.. آه.. الغرفة؟ سأعلمه أن المهجر لعنة، والقرى الجديدة جحيم... وإنه طرد من الفردوس قبل أن يولد، وصنعناه أنا وعبد الكريم في آتون الجحيم ليحمل اللعنة بين ضلوعه، أتتذكر يا هري الطيب إني

كنت دائماً لا أوده أن يخرج إلى الجحيم ويكتوي بنارها ولكن عبـــدالكريم كان يمسد شعري المبعثر على الوسادة ويرد بعتب.

(لا تكوني متشائمة يا زوجتي الحبيبة، انه وآخرون غيره، هـــم الـــذين سينقلون رفاتنا إلى الفردوس).

بالتأكيد انك ما زلت تتذكر، فقد رأيتك تنظر إلينا بحب ونحـــن مســـتلقيان علـــى الفراش ورأيت ــ لحظتها ــ في عينيك ذلك الخيط الأزلي، ولكن شباط كان بعيداً. تململ وأخذ يلوب حول نفسه ثم هرول نحو المنضدة، توارى تحتها لوهلة ثم ركض نحو باب الغرفة واختفى في الظلام ولكن نباح كلب أعاده كالبرق. وقف قبـــالتي، ماء بخجل ثم نكس رأسه... همست.

– لا تخجل... إنها قوانين الحياة.

خطا بخجل صوبي وجلس على قائمتيه الخلفيتين.

– ما بك أيها الهر الوديع؟،... ضجر، خائف، ربما خجلان، حســـناً يـــا صديقي الوفي سأحدثك عن حكاية من حكايا جدتي.

أقعى وخزرني بعين واحدة. لاعب شاربيه وانتصبت أذناه، وماء.

– حسنا، إسمع.

(جدتي كانت قرناً من الزمان، ولدت وعاشت ردحاً طويلاً في الجبـــل، لا تستغرب، من حقك أن تسألني عن الجبل، على سفح الجبل كانت مدينتنا التي ولدنا فيها، أنا وعبد الكريم وأغلب ناس المهجر، كانت جنتنا التي أخرجنا منها عنوة، لا علينا.... سأحكي لك تفاصيل ما جرى لنا فيما بعد، كانت جدتي حين تصفع الريح بكرة السماء وتنذر السماء بالمطر، تتمطى مفرقعة عظامها، ثم تتثاءب وتقول.

– أما زلتم مصرين على سماع حكاية "بنت الفلاح والبلبل".

كانت ــ وقتئذ ــ تلف سيكارتها، تشعلها من المدفأة المتحلقين حولها وتقول بصوت واهن.

– في البداية تفاحة لذيذة لكل السامعين.

كانت أفواهنا تتلمظ بشهوة، وكل يتمنى أن يحصل على ما وهبته الجدة، ولكننا كنا نصرخ بشوق.

– والعمر المديد لجدتنا.

كانت أساريرها تنفرج عن ابتسامة ميتة ثم تقول.

(يحكى وعلى الله عز وجل الاتكال أنه في قديم الزمان وسالف العصر والأوان كان هناك فلاح فقير يعيش في قرية تقوم على سفح جبل وكانت له إبنة، صبية سبحان من صور، جمال وقد واعتدال، وجهها كأنه الشمس في قبة السماء، وشعرها وكأنه ليل مدلهم في هجيعه الأول، أما عيناها سبحان من جبّل لهما سحر الشفق حين يطلق صرخة الطلق. كان أسم الصبية بدر البدور... ومع الأيام كبرت بدر البدور وحين أصبحت فتاة أخذت تحلم بالفارس الذي يحتويها، ينقلها إلى جنة الحياة، كانت تحلم به ليل نهار وتتصوره تارة فارساً يمتطي صهوة فرس بيضاء لها غرة سوداء تطير في السماء، يأتيها إلى النبع وهي تملأ الجرة، تبتسم وتطأطئ خجلة ثم يخطفها ويودعها وراءه ويطيران إلى السحاب... وتارة مقاتلاً يتقلد سيفاً يقدح تحت وهج الشمس، وحين يدك الأرض بقدميه ترتجف الدنيا خضوعاً له...).

وكانت جدتي تسعل ثم تلتقط صفيحة المعجون الصدئة وتبصق في أحشائها ثم تستطرد.

(وتزوجت بدر البدور...)

* * *

– آخ....

آخ... حرفان حقيران هما كل حدود الألم، لم لا تصرخ الزنزانة: آخ.. أنها مريضة، مصابة بمرض الإهمال، السرير الذي أضطجع عليه تنغرز أسلاكه

في ظهري، والعتمة رفيقة هذه الغرفة الصغيرة منذ ولادتها وستبقى ملازمة لها حتى مماتها، أنظر عبر العتمة إلى جدران الزنزانة،... خربشات على الجدران، ألمح شواهد عبارات غير مفهومة وشخابيط تحاول أن تشكل كلمة، أحاول أن أقوم، لم يتركوا أي شيء في حوزتي فقد قال المحقق.

- لا تتركوا أي شيء في غرفته، سكاكين، قضبان، أحزمة، حبال... لئلا ينتحر ونخسره فربما سيعاود نفسه ويعترف، ولا تنسوا وهذا الأهم أن تكبلوه بالسلاسل.

كنت لحظتها غارقاً بالدماء، عارياً، والدم يكسو جلدي، وصدري أمسى منخلاً من عقب السكائر المطفأة على ثديي، وكنت اضحك، اضحك، أقهقه بصخب، ولكن بألم ممض قاتل...

إنتصبت واقفاً، تصك السلاسل، أسمع وسط هذا الصمت المخاتل أصوات خطوات رتيبة تدق بلاط الممر المعتم وصوت صرخة طويلة فاجعة، لم أكن أحس بالوحدة والضجر فطالما كنا نتكلم أنا والسجين القابع في الزنزانة المجاورة بالصراخ... وقفت قبالة الحائط وأسرت لنفسي.

- أريد أن اكتب شيئاً.

بحثت عن شيء مدبب، وقعت على الأرض وأخذت أصابعي تبحث برهافة... لا شيء، لا شيء، وبغتة خطرت ببالي فكرة رفعت على أثرها أصابعي أمام عيني وصرخت بفرح.

- الأظافر.

قمت على أثرها وغرزت أظفر سبابتي في الحائط، وتذكرت..

الغرفة المضيئة بأنوار كابية، أدخلوني معصب العينين إليها، دفعوني برعونة، وقال لي الشرطي.

- حل رباط عينيك.

مددت أنامل راجفة إلى عيني، أحس أن هذه الأنامل ليست لي، أحل الربـــاط عـــن عيني، تصفعني أنوار حمراء ثم بنفسجية، أنظر بانشداه... مرايا، مرايا، لا شـــيء سوى المرايا، مضلعة، محدبة، مقعرة، مستديرة، مربعة، ثم وفي لحظـــة لا أدري كيف مرت، دوت موسيقى صاخبة مصاحبة بصرخات حادة ومبتـــورة ومتقطعـــة، وأصوات اطلاقات، وأزيز طائرات، وأخذت المرايا تـــدور وتـــدور، وصـــورتي المرتسمة فيها، تستطيل، تستدير، تتضلع، ووجهي يتخذ أشكالاً مخيفـــة، صـــخب ماجن، تأوهات جنسية، صرخات لها طعم العطش، مددت أصـــابعي إلـــى إذنـــيّ أسدهما، يتعاظم الصخب وأحس بوهن وهيجان وتهستر، أستدير علـــى نفســـي... أتعثر، أسقط. أقوم، أركض باتجاه المرايا، تبتعد، أصطدم بها ولكـــن لا تتكســـر، أركض صوبها ثانية، تبتعد، أضرب رأسي بيـــدي، صـــوت الموســـيقى الماجنـــة والأضواء المتناوبة بالانطفاء والاشتعال ثم تدور الدنيا في رأسي، رويـــداً رويـــداً أغرق في جحيم مستعر، لا أحس إلاَ وأنا على السرير وعتمة الزنزانة تحتويني... أنتهي من الكتابة على حائط الزنزانة، أتقهقر خطوتين ثم أصرخ:

سنعيش حتف أنوفكم.

* * *

يرتبك الهر، أراقب بروز نواجذه وحركته القلقة، يلتفت إلى بطني المنتفخة ويموء.

– حسب تقديري سيكون وعد بيننا بعد أيام، ولكن أباه... عبد الكـــريم... إيه....، لقد تأخر هذه المرة، سأقدم وعد هدية له ساعة مجيئه،..... دعني أكمل الحكاية.

(حين قالت جدتي.

– وتزوجت بدر البدور.

صرخنا فرحين.

– هي... هي.

إبتسمت جدتي وقالت.

- وتزوجت بدر البدور جوالاً. كان والحق يقال رجلا بكل ما تحمله هذه الكلمة من خصال، أسمر... بجسد فارع ممتلئ، عريض المنكبين، واسع الصدر... كان يوماً مشهوداً يوم زواج بدر البدور من فارس الجوال، البنات أكلتهن الغيرة على حظ الفتاة السعيد، والشباب حسدوا الجوال على حظوته، ولكنه رغم هذا كان عرساً مشهوداً تناقلته القرى المجاورة بحسد وإعجاب، فقد رقص الرجال وعاركوا الأرض بضربات أقدامهم الراقصة، وزغردت الفتيات وتحلين بأجمل الغلال، ورقصت الخيول على صوت قرع الطبول، وحين أسلمت الشمس للمغيب، دخل العريس على العروس في ليلة رائقة، القمر فيها في قمة شبوته...)

* * *

أنظر إلى الكلمات بإعجاب، أبتسم وأجلس على حافة السرير، أتذكر صاحبي فأناديه، ثم أقرأ عليه ما كتبت، يصرخ... رائع.. رائع.. يا عبد الكريم، أستلقي على السرير ضاحكاً، وأنظر إلى السقف الملتحف بالظلمة.

- قف وإلاّ رميتك.

وقفت مذهولاً... جاءني الشرطي وصوّب الفوهة إلى صدري، ضربني بعقب البندقية، أصوات المتظاهرين تأتي إلى أذني صاخبة... المقال في جيبي، ورطة، أحاول أن اهرب، فوهة البندقية على ظهري.

- قف هنا.

أرى ضابطاً أمامي يسألني.

– ما اسمك؟

– محمود.

يصفعني ويقتادني الشرطي إلى سيارة حشرت بها الأجساد حشراً، يعصبون عيني، المقال، ثم أصرخ... الهوية!! ورطة، لقد وقع الفأس بالرأس، أنك تحمل الهوية الحقيقية، وليس البديلة... يركلوننا بكعاب الأحذية، الأصفاد في المعصمين، كيف أتخلص من الهوية، تتوقف السيارة فجأة فتتقذف أجسادنا إلى أمام، يقتادوني إلى مكان ما، ثم عندما أحس باني أصبحت في غرفة. يحلون وثاقي وعصابتي، أرى وجه الضابط وراء المنضدة، لمحت سيماء وجهه جيداً، تقدم مني بخطوات واثقة وصفعني ومن ثم مدي يديه نحو جيوبي، أخرج الهوية من جيبي، جحظت عيناه حين وقع بصره على اسمي، هتف فرحاً.

– يا للروعة...!!!، الصحفي المشاكس.

تقدم مني ووقف قبالتي وقال.

– وأخيرا حللت علينا ضيفاً... أهلا وسهلاً.

* * *

(وفي اليوم السابع قال العريس لعروسه.

– هيئي الفرس.

قالت خجلة وهي تداعب قلادتها.

– أبهذه السرعة!

أجابها وهو يمرر راحتيه على وجنتيها المتوردتين.

– يجب أن أرحل إلى القرى، يجب أن أسافر يا بدر البدور، وإلاً ما طعم الحياة؟.

فخطت نحو الإسطبل وأسرجت الفرس التي كانت تصهل بفرح، وحين رجعت وجدت فارساً قد تمنطق بحزامه المطرز بالرصاص وهيأ أدوات العمل والسلع،... لبان، محابس، أحذية، أقمشة، زنانير، عقالات، وكوفيات... إستدار وهو يعدل "البندقية" على كتفه وقال برقة.

– لن تطول رحلتي أكثر من ثلاثة أسابيع، راقبي القمر، حين ترينه قد أمسى بدراً تسمعين صوت سنابك الفرس.

وذهب الجوال ــ يا أطفال يا حلوين ــ متسلقاً بفرسه سفح الجبل...).

* * *

إرتداني النوم، تراءت لي حقول الكروم وبساتين الليمون، والشمس المستديرة فوق أغصان الأشجار، والبرتقال، والزيتون... كنت جالساً أراقب ديكا يصيح، كنت مرتقياً ظلفة الشباك أرقب قن الدجاج، كان الديك يرف بجناحيه وينفش ريشه ثم يتعلق حجمه... ينصب عرفه ويرفع رأسه ناظراً إلى زرقة السماء ويصيح.

– كي كي... كيكي...

فأقلده ضاحكاً.

– كي... كي... كيكي

لم أكن أحس إلاّ وأمي تمطرني بوابل من الضربات بعصا جدي وتصرخ مهددة.

– ألا تكف أيها اللعين عن حماقاتك؟!

وحين تقترب مني أقفز نحو كومة القش المكدسة وسط أرض السرداب وأرتقي الدرج نحو باحة الدار وأركض نحو البستان، وفي طريقي كنت أرى الأصدقاء الذين قاطعتهم، كانوا يصرخون.

– أحم... أحم... صديق وصال.

أقف متحدياً للحظة واهزأ بهم ثم أواصل الركض نحو خميلة الكروم حيث وصـــال تكش العصافير بالصفيحة والعصا، أقف خلفها وأتلصص مقترباً منها ثـــم أغمـــض عينيها بأناملي وأقول.

– أحزري من أكون؟

كانت تتلمس بأناملها أصابعي ثم تهمس.

– عبد الكريم؟!.

ومن ثم تصفق قائلة.

– هي... هي... حزرت.

ونجلس متقابلين تحت سقيفة العنب الأبيض، وبغتة أصيح.

– يللا نلعب لعبة الشرطي والحرامية...

– يللا.. أنت الشرطي.. وأنا الحرامية..

– موافق..

وكنت حين أضع وجهي على جذع الشجرة واعد لحد عشرة أرقام ريثمـــا تختفـــي وصال أصيح بفرح.

– أنا الشرطي الشجاع.. أحمي البستان من الحرامية.

ثم أقف مخاتلاً وأبرم شواربي الوهمية.. وأصرخ.

– أخرج أيها الحرامي الجبان وإلاّ...

وأضل أبحث...

* * *

(ومرت الأيام...)

– أوه.. أين ذهبت؟.. لم لا تهدأ وتسمع بقية الحكاية.

وكأنه فهم قصدي، فترك (الطاسة) العتيقة واتجه صوبي ولكن بخطوات ثقيلة وهو لا ينفك ينكس رأسه، كالعادة، حين أؤنبه برقة أو أزجره بشدة، تقـــرفص أمـــامي مطاطاً الرأس، مددت أناملي ورفعته من ذقنه، نظر إليّ بانكسار فطبطبـــت علـــى ظهره وأكملت...

(ومرت الأيام طويلة على العروس وتلتها الشهور، والعريس لا خبر عنه، ساورتها المخاوف فأشارت عليها إحدى النسوة بالذهاب إلى عرافة الجبل، فقطعت تلة الجبل، وعندما طوق الليل الدنيا وصلت إلى فم المغارة وهي أعصاب تتراقص خوفاً، وفي اللحظة التي برقت فيها السماء راودها خوف مريع، وسألت نفسها....ما الذي قادني إلى هذا الموقف..؟ إني خائفة، هل أرجع؟.. أسعفني يا إلهي..

ولمحت على صفحة الليل أباها وهو يقول..

" عندما يتخذ الإنسان قراراً يجب أن ينفذه وإن تراجع فهو جبان، لذا فاني سأزرع سفح الجبل هذا الموسم رغم القحط المرتقب الذي يتكلمون عنه."

... وقتئذ إنسكبت في نفسها رغبة الاقتحام والتحدي، تحدي الخوف، وتقدمت نحـــو بطن المغارة،... كانت ثمة نار في الزاوية القصية من المغـــارة، ومـــن ألســـنتها الحمراء لمحت جسد العرافة، ثياب سوداء ملفوفة على كومة عظـــام وأعصـــاب، سمعت صوت العرافة المرتجف.

- تقدم يا طالب العون في أيام القحط، إقتربي يا امرأة يا من تجشـــمت عناء المجيء إلى المغارة، إفتحي لي قلبك وابسطي مصابك...).

وطوق الحذر رأسي كخوذة فولاذية أحسست على أثره بالنوم يغزوني، رشقت الهر بنظرة نعسانة وحلق بي بساط النوم إلى مدن الأحلام وحلمت...

* * *

وأبحث عن وصال بين الأحراش، ولكن دون جدوى، لا أثر لها، فاصرخ يائساً.

- أخرج أيها الحرامي الجبان فأنا الشرطي الجسور.

يتناهى إليّ صوت ضحكتها وكركرتها، ألتفت إلى مصدر الصوت، أعرفه، أتلصص، وحين ألمح جديلتها المظفورة بالشريط الأحمر ألقي بجسدي عليها وأمسكها من وجهها صارخاً بانتصار.

– وأخيراً أيها الحرامي أمسكتك.

تحاول التخلص من قبضتي متوسلة.

– بريء.. بريء.. يا حضرة الشرطي.

وتعاظم في داخلي صوت.. بريء.. بريء.. يتطاول، يتكاسح، ثم يعتريني ويكسوني، أستيقظ. أجد نفسي أصرخ برعب.

– بريء.. بريء.

* * *

وحلمت.. (مشت في غلسة الليل البهيم، تحث الخطى نحو أكمة مغتسلة بضوء القمر الذي بدا الآن وهو في سمت رأسها كليمونة مغسولة بندى الفجر، وتتساءل مع نفسها.

– إنه عين المكان الذي وصفته العرافة، رباه.. هل ما قالته العرافة صحيح؟

وتذكرت ما قالته عرافة الجبل.

– "**إنك حين تنادين البلبل لا تحاولي أن تنظري نحو صيرورة العتمة اللامتناهية المفروشة تحتك، وإن فعلت هذا...!**"

وجحظت عينا العرافة وتمتمت.

– "**فالويل لك وقتئذ**"

ها هي بدر البدور تقف الآن فوق صخرة عظيمة ميتة الأطراف، آه.. تلك هي البئر، إذن العرافة لم تكذب، ما علي الآن سوى التقدم بحيطة وحذر.

– "**لا تحاولي أن تلتفتي يمنة ويسرة يا بنية**"

مشت كالتمثال، لا يسار، ولا يمين، العينان مصوبتان إلى الأمـــام، إلـــى الأمـــام فحسب.

– "**ستجدين هياكل عظمية مبثوثة تعترض طريقك، فـــلا تجزعـــي، بـــل تقدمي بثبات وجرأة نحو الأمام**".

ها هي الآن تشرف على حافة البئر.

– "**فالويل لك...**"

تركز بصرها أمامها.

– "**عندما تقفين على سور البئر الواطئ، قفي كالحجر ونادي بكل قوة**" .

تنفرج شفتا بدر البدور وتصرخ.

– بلبل هزار.

– "**مهما كانت أجابته فلا تتحركي من مكانك**"

جاءها الجواب وامضاً ممضاً كالبرق.

– درد ومرار.

يأس قاتل داهم وجهها فتلبد قلبها بالأسى والشجن.

– "**لا تيتئسي، بل عاودي الكرة.. لك الثانية**".

صاحت بصوت حالم حزين.

– بلبل هزار.

– درد ومرار.

خارت قواها فحاولت التهالك على أقرب صخرة.

– "**حذار من التحرك، وإن حصل هذا فالويل لك، ستتحولين إلى عظـــام متكسرة**".

تماسكت بدر البدور وصرخت بكل قوة.

– بلبل هزار.

كل خلية من خلاياها أمست لحظة انتظار وترقب، القمر، السماء، ثوب الليل، وكل الصخور والجماجم الصافنة، وتراءى وجه العرافة وهو يقول.

– **"لك الثالثة فقط، إن كان نفسه الجواب.. درد ومرار.. فالأمر لا محالة واقع، زوجك ميت، ولا سبيل إلى نقضه، أما إذا أجابك بـــ..."**

وقطع عليها حبل تأملاتها صوت حالم أرق من خرير الجداول.

– لبيك يا طالب العون.

وانفجرت أمام عينيها غيمة بيضاء لا تدري أين كانت، ومن جوفها انطلق رجـــل عار عملاق مفتول العضلات يقدح وسناً، له رأس بلبل مغسول بألوان الدنيا كافـــة، أحنى رأسه بأدب وقال بصوت هادئ.

– تفضلي سيدتي. شبيك لبيك.. أنا عبد بين أيديك.

وعندما غادرتها الدهشة قالت بتوجس.

– أريد زوجي فارس الجوال يا سيدي.

أحنى رأسه بأدب حتى لامس منقاره الأرض ثم قال.

– أمرك مطاع سيدتي.

ثم نادى بصوت عظيم يسد منافذ السماء.

– فارس الجوال.

ولما تلاشى الصدى، شق سواد السماء فارس يمتطي صهوة فرس بيضاء تطير في الفضاء، وحين حاذاها وقفت الفرس على حين غرة، كان الجوال يمتطي صـــهوتها وهو يضحك، يضحك... صرخت بدر البدور بجنون.

– فارس... فارس.. يا زوجي العزيز...!!.

– عبد الكريم.. عبد الكريم.. يا زوجي العزيز!!.

صرخت بجنون، وحدقت بجسد بدر البدور فإذا هو...)

* * *

صوت صرخة طويلة واهنة، صحوت تماماً وفركت عيني، إنها صرخة حقيقيـــة، تلمست بأناملي الفراغ المظلم حتى وصلت إلى الحائط، راودني إحساس بأن رفيقي القابع في الزنزانة المجاورة قد زحف حتى الجدار أيضاً، صرخت.

– ما الأمر..؟

فجاءني جوابه هائلاً.

– تم تصفية الصبي.

صرخت برعب.

– يا إلهي.. شيء لا يصدق.

وتهالكت على أرض الزنزانة أبكي..

* * *

(فإذا هو جسدي، إلى وجهها فإذا هو وجهي، تقدم مني عبد الكريم وعانقني...)

وشعرت بسخونة في أطرافي وأردافي، صحوت تماماً، صرخت بجذل.

– عبد الكريم، سيأتي يا خديني، آه.. لو رأيته. لقد جاء ممتطيـــاً صـــهوة فرس بيضاء، ترجل، وقفز إليّ، ثم رفعني بين يديه القويتين وقبلني... ولمحته يتجاهلني تماماً، وهو منهمك في المواء وينظر إلى أسفل جسدي، نظرت إلى حيث ينظر، وجدت ساقيّ مكشوفتين لليل وإذا بي أنزف دماً و ...

– إنه المخاض.

لحظة قصيرة، ورأيت الهر تتوسع أحداقه، هرّ، وقفز، وشعرت بلزوجة بين فخذيّ.

– ساعدني يا إلهي.

وصرخت بكل ما تبقى لدي من قوة.

– وعد... عبد الكريم.. بدر البدور.. هري الطيب، إنه أخـــوك وعـــد... وعد!

ولزوجة، الترجل، بطن، ولادة، سيقان، وأسنان تعض البطانية بتوجع، ويحملني فضاء لا قرار له، لا قرار...

* * *

صرخت مخاطباً زميلي في الزنزانة المجاورة.

– أصمد.

جاءني الجواب.

– أنا صامد.

– حتى الموت.

وبنبرة تحمل نكهة التحدي.

– حتى الموت يا عبد الكريم.

فجلست على فراشي وفكرت بكتابة قصيدة.

* * *

حين فتحت عيني ورأيت الدم يغسل الشرشف، والهر.. والهر يداعب الوليد، يناغيه، والطفل مسجى على ظهره مغمض العينين، همست.

– لأقص سرته وأغسله بالماء والصابون.

الريح في الخارج لا تزال تزمر والليل يهرب نحو مرافئ الفجر، وفارس يأتيني ملثماً متمنطقاً سيفه، يقف فوق رأسي، شمساً، جبلاً، عاصفة... أراه يبتسم، يشيل الوليد بين يديه ويقبله بحنان فأهتف له.

- إنه وعد يا عبد الكريم..

* * *

قمت من سريري أتلمس العتمة الهاربة وشهرت أظافري بوجه الحيطان وشرعت أكتب القصيدة.

*

- **كتبت عام ١٩٩٨.**
- **نشرت في العدد الثالث من مجلة (الطليعة الأدبية) الصادرة عام ١٩٨٠.**
- **أعدت كتابتها عام ٢٠٠٥.**

الرسالة

رن الجرس، قمت بتثاقل وهرعت نحو الهاتف.

- نعم...!

جاءني صوت هادئ من الطرف الأخر.

- خياطة الإخلاص؟

- نعم، تفضل.

- أريد السيد عامر أحمد لطفاً.

- أنا عامر.

- عفواً، نحن نكلمك من مستشفى (....).

هتفت

- مستشفى؟!.

- نعم، بخصوص ليث عبد الوهاب.

همست مأخوذاً وقد جف حلقي.

- ما به؟

- سيد عامر، يؤسفنا إبلاغك وفاته.

- ماذا تقول..؟

وانفلتت سماعة الهاتف من يدي، شعرت بأشياء الغرفة تدور في رأسي فاتكأت على منضدة الخياطة وجلست كالمصدوع على الكرسي اردد بذهول.

- مستحيل.

****

فتحت الباب الخلفي للسيارة وتهالكت على مقعدها، وعندما استويت جالساً قلت للسائق.

- بسرعة رجاءً.

وغرقت داخل ياقة قميصي، تقنفذت داخل ذاتي وجهدت في إحضار وجهه، ليث.. أحلى أسم رددته شفتاي طوال سنة. لا يمكن لهذا الإنسان أن يموت، كيف مات.. ولماذا؟ وتهالكت أمامي صورته: وجه مدور أبيض، شعر أسود تقتحمه شعيرات بيضاء تتكاثف واضحة عند السالفين، وعينان صقريتان سوداوان، هاتان العينان كانتا تأسراني دوماً كما أسرتني في أول لقاء بيننا إذ كنت منهمكاً في خياطة قطعة ما، سمعت صوت لغط الصبيان وهم يرددون.

- مخبّل.. مخبّل

ورأيت جسده يحتل الفسحة المحصورة بين خشبتي الباب وهو يلتفت إليهم مستقبلاً قطع الحصى الصغيرة بيديه ووجهه مشرق وطيف ابتسامة ترف على شفتيه المتيبستين، وحين انسحب الفتيان وتلاشت أصواتهم رأيت وجهه يربد ويكتسيه أسى عميق وغمغم بضع كلمات مبعثرة غامضة، ثم خطا صوب الواجهة الزجاجية لمحلي وأخذ يحدق بفضول واهتمام نحو أطوال الأقمشة المنتصبة بزهو وسط ديكور أنيق، حدقت فيه وجذبني إليه شعورياً، رأيته ينسحب نحو دكان آخر، ثم ــ وبغتة ــ كان يقف بالباب، قلت له.

- تفضل.

دخل وتملاني بنظرة شاملة وقال بصوت خفيض.

- أتسمح بأن ألملم قطع القماش؟

إبتسمت بوجهه مشجعاً وقلت.

- كما تشاء.

وانحنى يلم خرق القماش الصغيرة بهمة، وعاينته من علٍ، جسم هائل، فارع، قلت له.

– ما اسمك؟

أجابني بآلية.

– ليث.

.....والسيارة إذ تمرق من ساحة مشجرة فسيحة تنساب أمامي أجساد الناس وواجهات المخازن وأضواء الشارع ثم تتماوع تدريجياً متصاغرة أمام صورة ليث وهي تلتصق بصميمية مذهلة على زجاج السيارة الأمامي، أتأمل الوجه.. وجه كالبدر تقتحمه عينان سوداوان محاطتان بهالتين متفتحتين، حليق الشارب، وثمة ندوب متعددة منتشرة في أنحاء وجهه لعل أبرزها ذلك الشرخ العميق ما بين العين اليمنى وأعلى شفته، وشفتان منفرجتان دائماً تضفيان على وجهه بعض الغموض.

– ليث أنت لغز.

أنتظر رده ولكني لا أتلقى سوى ابتسامة غامضة.

– لم لا تفصح عن شخصيتك الحقيقية؟.

أنتظر رده ولكن صمته يتعمق أكثر.

– وان لي أن أجزم، فلن أقول سوى أنك لست معتوهاً.

ألتفت إليه.. لا أجد أحداً، أتجول ماسحاً أرجاء المحل بعيني، أراه واقفاً بباب المحل والشمس التموزية القائظة تصفع جسده ثم اختفى بلمح البصر وراء الواجهة الزجاجية ليظهر أمامي ثانية ــ وبسرعة قصوى ــ وهو يحتضن طفلة يافعة، تقرفص أمام الباب وأجلس الطفلة على الأرض بجانبه وهي ترشقه بنظرات دهشة طفولية، سمعته يسأل بصوت به حنان وهدوء.

– ما اسمكِ يا حلوة؟.

رفعت الطفلة كتفيها الغضين بحركة ممانعة وقالت.

– لن أقول.

إرتداه جذل طفولي مشرق (راقبت ليثاً منذ زمن، لاحظت الفرح اللامحدود الـــذي يحتويه كلما نظر إلى طفل حيث ينطق وجهه بالبشر وتتقد عيناه ثم ينشـــأ يدنـــدن بصوت خافت، ولكنه وبغتة يصاب بالوجوم ويكتسب وجهه تعبيراً تراجيدياً وتدمع عيناه ثم يخرج مهرولاً من الدكان كالمطارد) وقال للطفلة بفرح.

- وإذا صنعت لك دمية، هل تذكرين؟

هتفت الطفلة.

- حقاً..

- نعم..

ثم قال مؤكداً.

- هل توافقين؟

- أوافق.

قالت الطفلة بتأكيد طفولي جازم فعمد ليث إلى خرق القماش وطفق يصنع الدميـــة بمهارة وحذق فنان أصيل. ولما أكملها أعطاها للطفلة قائلاً.

- ما رأيكِ بها؟

أجابت وهي تنتشلها من يديه.

- حلوة... حلوة.

- وإذن... ما اسمكِ؟

- رند.

فهتف بصدق.

- إسم جميل مثلك يا حلوة.

وقبلها بحنو أبٍ ثم رأيت سحب الوجوم تطفو في عينيه، منذ أن عرفته وهو يصنع الدمى حتى بات السؤال المحير يدق رأسي ويكسبني الصراع وحبة الباراستيول.

- ما سر تعلقه بالأطفال؟ ماذا كان قبل أن يصير إلى حالته هذه..؟ أو قبـــل أن يصبح مجنوناً حسب تصور الناس، رغم يقيني أنه ليس كذلك بالتأكيد.

وصحوت من تساؤلاتي على صوت نسائي غاضب.

- أتركها أيها المعتوه.

وهجمت المرأة على رند وصفعتها ثم دفعتها أمامها برعونة، والطفلة تبكي بحرقة إلى أن اختفى صوتها،.. إلتفت إليه، أحسست به يذوب، دخل المحل وجلس قبالتي بانكسار ثم حنى رأسه، بقي على حالته هذه دقائق معدودات، ثم اختفى كالبرق، وكان آخر ما رأيته الشقوق المحفورة أسفل قدميه وهي تغادر عتبة الباب،..... والوجه لا يزال يبتسم أمامي، أناديه.

- ليث

تتعملق الابتسامة على شفتيه.

- كيف تموت يا ليث؟

الوجه يبتعد ويجلس فوق العمارة المقابلة.

- هل أنا أحلم؟

يبتعد الوجه ويصغر، ووجهته الشمس ثم يختفي حين يصير أمام الكرة الصفراء المتوهجة البعيدة، أصرخ.

- ليث

أسمع صوتاً به هدوء واستغراب وتساؤل.

- إنك تهذي.

أنتبه إلى نفسي، أجد عينين عسليتين تنظران صوبي، انتفض فاركاً جبيني المندّى.

- فعلاً أنا مريض.. هل وصلنا؟

- منذ زمن.

وتتقيأني السيارة بسرعة، أهرول بجنون نحو مدخل صالة المستشفى ولا شيء أمامي سوى وجه ليث.

******

قال لي الطبيب:

- أهلاً بك سيد عامر.
- أهلاَ بك دكتور.
- كان يكلمني عنك كثيراً.
- ولِمَ لمْ تتصل بي منذ حين.
- لم يعطنا أي عنوان عند رقوده في المستشفى، ولكني استطعت أن أكسب ثقته وأقتحم أسواره المنيعة كما يقال، أعطاني رقم هاتفك شرط أن لا أتصل بـــك طالما هو راقد عندنا.

وصمت للحظة وهمس.

- إنه واجه الموت بشجاعة نادرة ونفس هادئة مطمئنة.

وبعد أن وجد الإعياء بادياً على وجهي همس.

- إن الحديث عنه أنساني حتى أن أدعوك للجلوس، تفضل استرح.

وفعلت، جلس الطبيب على مكتبه يتملى وجهي وقال.

- كان بارعاً في الوصف، رسمك في ذاكرتي كما أنت الآن أمامي.

سألته فجأة.

- ما الذي حدث؟

إختفت الابتسامة من وجهه، ثم قال بنبرة أسى.

- توفي ليث مساء أمس نتيجة إصابته بسرطان الدم.
- سرطان..؟! ولكنه كان معافى مثل الليث.

سألني الطبيب.

- متى كانت آخر مرة رأيت فيها ليث؟
- قبل ثلاثة أشهر تقريباً.
- نفس الفترة التي راجعني فيها تقريباً.

وبعد فترة صمت قال.

- لم يمهله كثيراً.

لهجت بحرارة.

- رحمك الله يا أخي.

سألني الطبيب.

- هل أستطيع إكمال الإجراءات وكأنك المسؤول عنه؟

- بالتأكيد.

أخرج الطبيب من درج مكتبه ملفاً دون فيه اسمي الثلاثي وكتب شيئاً ثم أعاد الملف إلى مكانه، ثم قال كمن تذكر شيئاً.

- وهناك شيء آخر.

- ما هو؟

- كان مولعاً بصنع الدمى من بقايا الأقمشة واللفائف، وقد أوصى بها إليك.

وأخرج علبة كارتون أُغلقت بعناية ببلاستر طبي وناولني إياها.. فتحتها على عجل لأجد دمى متعددة الأشكال لصبايا شوهاء بفعل الاحتراق..

.....وتذكرت زيارتي المفاجئة تلك الظهيرة إلى صومعته.

- ليث.. لِمَ لا تسكن معي؟

- .....

- إنه أفضل من العراء على أية حال.

- .....

- إنه طلب ورجاء.

أجابني فجأة.

- رجاء عامر، دعني أعيش كما يحلو لي.

ثم أنشأ يلملم خرق القماش من الأرض ويضعها في كيس من النايلون ولما انتهى قال.

- سأخرج، هل تحتاجني في شيء؟

سألته بغتة.

- ماذا تفعل بهذه الخرق بحق السماء؟

لم يجبني، بل خزرني بنظرة لم أستجل معناها وخرج فتملكني حب الاستطلاع إلى اكتشاف سره فعمدت إلى إغلاق المحل وتبعته دون أن يراني... دخل من شارع إلى زقاق إلى ساحة فسيحة وأنا أتبعه كالظل، حتى استوت السماء أمامي ناصعة ثم أمهلته ريثما ينحدر، صعدت إلى السدة ورأيت النهر تحتي بزرقته الأبدية، ثم لمحته يختفي في بقعة ركزت عليها خلال هبوطي إلى الشاطئ، وبعد فترة ليست بالقصيرة عرفت سر هذه الهلوسة بالخرق عندما اكتشفت مأواه... كان عبارة عن حفرة لعمال صنع القوارب كانوا يغلون فيها القير لطلاء قواربهم المثقوبة، ثم بعد حين تركوها فأتى ليث ببضع أخشاب طويلة وسقفها فوق الحفرة ثم جاء بحصيرة وفرشها فوقها وغلفها بالمشمع وأهال فوقها التراب. كان ليث جالساً وأمامه عدد لا يحصى من الدمى المصنوعة من خرق القماش على شكل وجوه أطفال: ضاحكة، صبوحة، ساحرة،... في هيئات مختلفة، جالسة، راقصة، راكضة، وبسمات مختلفة، سمراء، حنطية، شقراء، بيضاء، سوداء،... وفوق كل منها وعند موضع الرأس ثمة قطعة صغيرة من الورق المقوى مكتوب عليها أسماء إناث بخط جميل: مريم، أمل، زينب، سماح، شذى، سمر، هاجر... الخ، وليث جالس يتأملها والدموع تنساب من مآقيه نقية ساطعة صافية زاخرة بالشجن، همست لنفسي.

- ما قصة هذا الرجل...؟

إنتبه للهمهمة التي صدرت مني فالتفت مرعوباً ورآني، آنئذٍ لمحت في وجهه صورة الأسد الجريح فزأر في وجهي.

- ما الذي جاء بك...؟

قلت له ملاطفاً.

- أهكذا تستقبل الأصدقاء...؟

تشنج وجهه وهمس كالكلم المتألم.

- لِمَ أفسدت الصداقة الحميمة التي كانت تربطنا.. لم...؟!

ثم صرخ.

- إغرب عن وجهي.

وكانت تلك آخر مرة أرى ليث منها رغم بحثي المضني والميئوس منه لفترة ليست بالقصيرة....

صحوت، وجدت الطبيب يتفرس بوجهي وثمة ابتسامة ودودة تنفرش على محياه ثم قال.

- هناك شيء آخر تركه ليث لك.

وأعطاني مظروفاً مغلقاً، فتحته على عجل، أخرجت ورقة وقرأت.

" أخي عامر..

ووجدت أخيراً مبتغاك في التعرف عليّ، ذلك الهاجس الذي كان يؤرقك كلما تنظر إلي، كان لابد للسر أن ينجلي ولكن بعد أن أختفي تماماً من حياتك، أعرف أن أيامي في الحياة معدودة وأن السرطان يسري في دمي سريان النار في القش، رغم أن الطبيب، هذا الإنسان الودود اللطيف يحاول إخفاء الأمر عني... سامحني يا عامر، لقد أتعبتك معي، مع مخبول، نعم مخبول... لن أطيل عليك الحديث، بل كل ما أستطيع أن أقول في هذه اللحظة التي أكون فيها غائباً وقريباً جداً في آنٍ واحد، هو أنك ستعرف عني كل شيء والوسيلة لذلك مظروف موضوع بين طولي قماش الهمايون الأزرق والقذيفة الأسود الموضوعين في الزاوية اليمنى للواجهة الجانبية التي قلما تستعمل أطوالها الموضوعة بحيث صارت للزينة فقط.

أخي عامر...

سامحني على صفاقتي يوم اكتشفت أمري.

ليث عبدالوهاب))

هززت رأسي أسفاً وأنا أغالب دمعة تحاول الانسلال من عيني.

- هل أستطيع أن اقرأ الرسالة؟

سألني الطبيب فأومأت برأسي موافقاً، تناولها بلهفة وأنشأ يقرأ وعند الانتهاء سألني برجاء.

- أتوافق أن أرافقك إلى المحل..؟

وخرج صوتي أخيراً.

- هيا بنا.

****

وجدنا الرسالة في المكان الموصوف، حملتها بأنامل مرتجفة وجلست والطبيب بجانبي، أخذت أتملاها بصمت ولكن الطبيب قال.

- أرجو أن تقرأها بصوت مسموع.

إمتثلت لرجائه وأنشأت اقرأ.

(- لن أحترم العالم ما دام في الأرض طفل منكسر العينين.

أعرف أن هذه العبارة للشاعر حسين مردان، نعم يا عامر إن هذه العبارة تترجم تماماً إحساسي تجاه العالم، أن الطفولة هي واحة المبدعين حين يريدون العودة إلى النبع الصافي النقي كالبلور.

أرجو أن لا تتوهم وتتصورني شاعراً، لا... لست كذلك، ولكني متذوق للشعر، أفهم شعر نازك الملائكة، وأتحمس لشعر محمود درويش، وأتيه خيلاء لشعر المتنبي، وتسحرني أمطار السياب، مثلما أتيه في سكون ليل جبران... إني باختصار أمثل الشخص أدناه.

إسمي: ليث عبد الوهاب محمود.

الحالة الاجتماعية: أعزب.

مواليد: ١٩٥٦.

المهنة: معلم.

أما ما عدا هذه التفصيلات... مات أبي وأنا صغير فتربيت مع أمي في بيت جدي، ولما تخرجت من معهد إعداد المعلمين عينت معلماً للبنات في المدينة..

(- ماذا تريدين يا أمل.. أن تنشدي المحفوظة... حسناً.. أية محفوظة... يا بط.. هيا ننشدها معاً.

يا بط يا بط

أسبح بالشط

قل للسمكة

أتت الشبكة

ميلي عنها

تنجي منها

وعلى الحرف

خفي خفي..

رائع يا أمل، صوتك جميل مثل وجهك.

وكانت الوجوه المحيطة بنا والتي تضببت ملامحها بفعل العتمة السادرة تبتسم وينتشر الفرح فيها، رغم الترقب والخوف وأصوات الإنفجارات وأنين الطائرات فوق سماء المدينة، إلاّ أن البرقيات السريعة من الفرح وسط أجواء الترقب المضني والبحث اللامجدي عن النوم وسط ملجأ، وبعد حين سمعت صوت رجلٍ مسن وهو يردد.

- ميلي عنها

تنجي منها

وارتفع في مكان ما من الملجأ الذي تنيره القناديل الصغيرة صوت بكاء طفل في أشهره الأولى، والأم تهدهده مرنمة.

يوسف وقع في البئر

إلتقطه الطير

طار به في الأعالي

إلى السهول الفسيحة

إلى الحقول اليانعة

إلى الجبال البعيدة

يوسف حلّق في السماء

إلى الملائكة

إلى الفردوس

يوسف ملاك

يوسف ملاك...

دللوي.

طربنا للترنيمة الرقيقة التي كانت تقارع الطائرات والصواريخ.. ورويداً رويداً يسود الصمت أرجاء الملجأ، وينام الليل ولا تنام العيون المترقبة...)

عذراً يا عامر دعني أبكي، رغم علمي أن البكاء لا يجدي، ولكنه على أية حال وسيلة للتنفيس عن كربي، لولا البكاء لكنت قد انفجرت منذ زمن بعيد.

(– نعم نهى، ماذا أرسم لك؟ بالونة، حسناً، ناوليني القلم.

الصمت يلف الأرجاء والأطفال لائذون بالحيطان وعيونهم مسمرة نحو عيون أمهاتهم وجداتهم المليئة بالكلام، ومن ثم يعاودون اللعب غير آبهين بالصمت الماثل..

– إكتملت البالونة، لماذا تكشرين، أليست جميلة؟، حسناً سألونها لك.. تقولين أنها جميلة، إذن ما الذي يجعلك غير سعيدة، همم.. تريدين أن ارسم طفلة تمسك بها وهي تطير في السماء الزرقاء، سأفعل.. ماذا بعد؟ أن تشبهك، لا بأس لقد أنهيتها، أليست جميلة؟ شكراً يا حلوة، أتريدين أن تقبليني، إفعلي يا نهى..).

سأبكيك يا نهى حتى الثمالة، يا نهى الحبابة، ذات العينين الملائكيين.. "دخان.. نار.. دخان، مرجل، سعير، أرواح بريئة تتهاوم في الفضاء المتفحم، زحفت نحو الباب، لا أراه بل أهجسه على يميني، أرفع عينيّ وأنظر، أين شذى؟، هاجر؟، نهى؟، أمل؟، مريم؟، زينب..؟؟؟!!! لقد تحول كل شيء في الملجأ إلى لحم مقدد، آه يا ربي، لِمَ جعلتني أرى الجحيم وأنا حي لا زلت أتنفس، وقلبي المرعوب يسابق الزمن في عدوه.. أين ذلك الشيخ الوقور الذي كان يغتال ليالي الملجأ الثقيلة بحكاياته عن السندباد والشاطر حسن وعلي بابا والأنس والجان.. والنساء والأطفال يتحلقون حول بسطته يحلقون إلى عالم ساحر، يمخر فيه السندباد عباب البحر

المجنون بعفاريت العواصف وهو يحلم بالجزر المجهولة القصية، أو أولئك الرجال الذين يقاتلون الجن من أجل إنقاذ الأميرة المحبوسة في قمقم ساجٍ، وكانت الساعات تترى يتصارع منها الخيال الحلو كمكسرات السكاكر مع الواقع المعبأ بالعصف والقصف...

الظلام، ورائحة اللحم المحترق، والأضواء الناثة من الفتحات التي أولدها الصاروخ جعلني أصحو تماماً، تلمست جسدي بأصابع مستوفرة ثم أرجعت أناملي أمسح الرماد عن عيوني وحدقت.

– رباه.. ما هذا.. لِمَ دمروا الينابيع...؟!.

وشعرت بتعب وثقل يغزو حلقي وصدري، فتوقفت عن القراءة وأنا أحاول إمساك زمام قلبي المتسارع، رفعت رأسي نحو الطبيب الذي كانت عيناه مشدودتين إلى شفتي، سحب شهيقاً عميقاً وقال خلل عبرة دافقة.

– أكمل أرجوك

وبعد يا عامر..

أتدري أية آصرة من المحبة والإيثار والوفاء تكونت عند هؤلاء الناس اللائذين في الملجأ، كانت أشبه بتغريدة شجية لبلبل يحيى الصباح الطالع للتو، ولكن الصباح لم يطلع عليهم ولم يغرد البلبل أغنيته المألوفة، بل ....."

لم أستطع تكملة الرسالة حين رأيت الطبيب يخطو نحو الواجهة ويقابل الشارع المزدحم، وقفت بجانبه صامتاً ونظرت إلى السماء خلال زجاج الواجهة، وأبصرت ليثاً يومئ لي ويّحلق بسرعة حتى أضحى نقطة بيضاء في حشية السماء، صحوت على صوت الطبيب وهو يقول بهدوء.

– حدثني عن ليث يا عامر.

*

- كتبت عام ١٩٩٩.

- نشرت في العدد الثالث من مجلة (الطليعة الأدبية) الصادرة عام ١٩٨٤.
- أعدت كتابتها عام ٢٠٠٥.
- حازت على الجائزة الثانية لمسابقة القصة في الملتقى القصصي الأول لمحافظة صلاح الدين عام ٢٠١١.

النبض الأبدي

قرية جبلية نفض عنها أهلها غبار أقدامهم هرباً من الشرارات المتساقطة من السماء، حمم بركانية بأشكال متعددة: مدببة طويلة تحف بها شلالات من نـــار، كروية تتشظى منها نجيمات بارقة برتقالية ــ خضراء ــ صفراء، ثريات متلألئات تهوي من الخالق، تتوامض نيرانها المتساقطة بشكل هندسي بديع، كل هذا الجـــيش من الكرات والثريات والاسطوانات المعبئة بالدمار والرصاص والشظايا الكاويـــة، القاطعة، العادية، لكل أشكال الحياة وجد طريقه وبشكل مـــنظم وتوقيـــت متوافـــق ليعانق سقف بيت طيني، أو سياج مبني من الجص والحجر الجبلي، أو فوق قضبان من أخشاب متشابكة ومتكاتفة لتشكل في تآصرها جسراً خشبياً يحنو على ساقية أو نهر صغير مياهه صافية صفاء عين الديك.

قرية جبلية تسرح فيها قطعان شائهة من خراف إفتقدت راعيها الذي آثر الهزيمـــة والنزوح دون أن يفكر في إخلائها، خراف ونعاج تنظر كبشها المذبوح بفعل شظية شوهت رأسه، والناقوس في رقبته المدماة يغفو في نومة أبدية.

قرية جبلية، تغفو على كتف جبل منح لها في غوابر الحقب الأمان والطمأنينة بفعل صلادته وجهامته وبسالته مع رجال القرية في الـــزمن الزائـــل لطـــرد الأعـــداء والطامعين وردهم إلى نحورهم خائبين، هذا الجبل لا يفهم الآن وهو يرجّع صـــدى فرقعات بعيدة ويحتضن وميضاً بارقاً، ويطرشه صفير مدوٍ، يعجز الآن عن فهـــم سبب هجرة الناس رغم أنه لا يزال يحاول أن يهبهم الحماية والأمان، هذا الجبـــل مستعد أن يفني حجارته وكيانه كله من أجل أن يبقى أهل القرية يبتسمون بوجهـــه صباح مساء، يحميهم نهاراً ويحرسهم ليلاً بنفسٍ جذلى.

- إذن لماذا تركوا بيوتهم وذهبوا ؟!!.

إنه يعجز عن فهم أن أهل القرية إكتشفوا أن الكرات والثريات والأسطوانات أقوى من الجبل وصلابته وأنه عاجز عن أن يكون سداً منيعاً لاختراقاتها المتكررة.

إفترت شفتاه عن إبتسامة رضا حين عاين الراعي بملابسه المميّزة: جاكتة من لباد، وثوب طويل من الصوف، وقبعة من جلد الجاموس وهو ينظر من مكمنه قرب التنور إلى أرومات وجذوع متقصفة وجذائذ مفتوحة الأشداق، قال الجبل.

- أنا أعرف أن الراعي لا يتخلى عن قطيعه.

تتسلق عينا الراعي الصغيرتان لتستوعبا لوحة تجريدية طبيعية رسمها فنان مسكون بالسريالية... غصن متفرد فوق جذع إنقلع ثلثاه وبقي يقاوم العصف والريح والمطر الناري وفي نهايته تشمخ حبات الزعرور الوردية.

- إنها حكمة الخالق.

قال الجبل لنفسه.

- ترى هل ثمة آخرون؟

تعاين عينا الراعي عريشة عنب بعناقيد سوداء متدلية تلتف حول أغصان شجرة بلوط بالكاد تقف على جذع عريض قضقضته شظية كبيرة واتخذت لها سريراً في الجذور ولكن تشابك أو تعانق العنب والبلوط لا يمكن لكل شظايا العالم أن تفكه... يتأوه الراعي.

- إنهم لا يفهمون هذا السر مهما قصفوا.

قال الجبل.

- لو حذا الآخرون حذو الراعي.

سياج من طين صلصالي متقوض جعل الراعي ينتبه إلى بيت بلا سقف والأثاث مبعثر في الفناء، لفت نظره مهد بستارة وردية وهو يهتز جيئة وذهاباً وثمة صوت مناجاة أمٍ تناغي رضيعها لكي ينام وهي تعده برجوع أبيه من مفاوز وقمم الجبال البعيدة محملاً بلبن العصفور، والزعرور، والجوز، واللوز، والفستق، فيكركر الرضيع مستخفاً بترنيمة الأم، فأنى له القدرة على تكسير الجوز... ثم ما هو لبن

العصفور هذا؟، إن لبنك يا أمي الحنون لا يمكن أن أبدله بكل أطايب الدنيا....، نفض الراعي رأسه، وعاد إلى نفسه.

– يقيناً أن هناك كركرة وغناء..؟ أيمكن..؟ هل هذا معقول ؟!.

وزحف على بطنه، المناجاة حقيقية والنبرات المنغمة جلية، ولكن أين الأم..؟ وأين الرضيع؟ آه ما أجمل نبرة الأم حين تناغي، يتطامن صوتها ليغطي الكون بأجمل صداح. يقف الراعي، يفرك عينيه ويحدق... المهد يهتز جيئة وذهاباً، وتترفرف حول أطرافه نهايات الشرشف والدانتيلا وصوت الكركرة يغطي الفراغ بين كل وقفة ولاحقتها من غناء الأم، يصل إلى المهد، يرفع رأسه ويزيح ستاره.

– إنه فارغ! لا أثر لطفلٍ فيه.

ولكنه يستاف تلك الرائحة المتبادلة بين أنفاس الأم وطفلها، رائحة الحليب الطازج، وأنفاس دافقة لشهيق أم جذلى بجنينها ورضيع يبادل أمه الإبتسام... يلبد إزاء مقدمة المهد ويتذكر الليالي الطويلة الممتعة التي كان ينصت فيها وهو يصطنع النوم إلى غناء زوجته وهي تؤرجح المهد بآلية تتناغم مع اللحن، لا يدري لم تعملقت صورة الشجرة في عينيه على حين غرّة وأبت أن تغادر العين والذاكرة..

– آه.. أيتها الشجرة المعمرة، أيتها الفاتنة التي تتأرجح على جدائلها الخضر كرات ملونة بلون غمازة عذراء خجولة، ستبقين بمنأى عن الضرر، لأنك شجرة الإنسان الأول... شجرة آدم.

مذ فتح فمه ولطم الكون بصرخته الأولى رآها، كبيرةً، وارفةً، معطاء، تهب ثمراً مباركاً يكفي أناس القرية شيباً وشباباً وأطفالاً. يقطعون تفاحها الأحمر الشهي، الذي لا يمكن لأية تفاحة في العالم أن تقارن نفسها بتفاح شجرتنا المباركة... منذ الصغر واليفاعة والشباب وحتى هذه اللحظة وهو يطأ العقد الخامس من العمر، رآها وعاينها دوماً، زاهيةً، خرافية الخضرة، خرافية العطاء... كان شيوخ القرية وحكمائها يرطنون بإعجاب..

– إنها أم القرية وشفيعتها، وسر وجودها.

تملاّها وكأنه يعاينها للمرة الأولى: شامخة شموخ نفسه، رائقة مثل روحه التي لا

تساوم مطلقاً، ثابتة في أعماق الأرض كما يفعل الآن وهو يسمع هتافاً نائياً يأتيه من الجذور، من أعماق الروح.

- رب السموات يحرسك.

زحف على بطنه عائداً إلى موضعه، الدنيا في هذه اللحظة مركونة فوق فوهة بركان، تحترق غابة الصنوبر، والسماء، والجبل، والبيوت، والهواء بسعير نارٍ ينبثق من مكان ما خلف الجبل، ربما من الجحيم بعينه وتجبّب المكان بالدمار، توقف عن الزحف حين إرتكن كل شيء إلى تلك اللحظة النادرة المحصورة بين انفجار وآخر، ونظر إلى شجرة التفاح: كانت تناديه بكل جوارحها، تفرد جناحيها أو حناياها، أو ذراعيها، فرك عينيه ناضياً عنهما الضباب أو الغبار، تفرّس بجنون، ثم لهج بحرارة.

- أماه.

كانت تقف أمام الجذع، إمرأة ثمانينية ببشرة بيضاء ووشم على الحنك، تتلفع بفوطة نيلية وتتسربل بدشداشة بيضاء تشبه نديف الثلج أو لبناً رائباً.

قال الجبل متعجباً.

- أرى الراعي مذهولاً وهو ينظر شجرة التفاح، ترى ما الذي جعله يقف كالتمثال؟!

قالت شجرة التفاح.

- حاذر يا ولدي.

تحركت الأم وخطت اثنتين وهمست.

- أيها الراعي الطيب. إحترس يا ولدي.

خطا، على طوله، دون أي إجراء إحترازي وحواسه مأخوذة نحو الأم التي تجلت أمام ناظريه، والتي ما عاد يتذكر من ملامحها إلاّ هذا الوجه الحبيب المتجلي أمامه بوجهٍ أبيضٍ موشوم وقدٍ ضامرٍ رشيق، فاجأته رغبة بالعودة إلى أربعة عقود ونيّف، والركض بأقصى ما يملك من سرعة، والقفز نحو رقبة أمه، ثم تقبيلها من خديها وعينيها وشعرها الأسود الفاحم، لاهجاً بصوتٍ طفولي.

- أنا أحبكِ يا أمي...

وتقول له... كما كانت تفعل.

- إلى أي حد..؟

ويفرد ذراعيه على طولهما ويقول بخيلاء.

- إلى هذا الحد.

فتحتضنه ثانيةً وتقبله ثم تشيله إلى صدرها وتدلف إلى الكوخ...

لقد جمد كل شيء في بؤبؤيه... السماء إلى كائن كتلوي ملون لا ملامح جليةً لـــه، فقط، الوجيب... يسمعه بوضوح ينطلق من نقطةٍ غائرةٍ من قلب الشـــجرة / الأم، ويتموسق مع وجيب قلبه، قالت له الشجرة.

- لا تخف.

قالت له الأم.

- تعال يا فلذة كبدي.

قالت له الشجرة / الأم، بحرارة.

- هلم يا بني توحد بي.

دخل الحشايا، وجد طريقة إلى القلب، إستشعر الأمان والدعة ودفق الحياة وهو يغذ السير في رحلة عجيبة نادرة إلى موطنه الأول، حتى أنه لم يفهم ما معنـــى الـــذي يحصل له ويراه بأم عينيه.

أن يرى أوصاله تتطاير مدماة في الفضاء، دافقةً بالدم الحار النازف. متلفعاً أشلاء شجرة التفاح بفعل قذيفة سقطت في القلب تماماً، قلب الأم/ الراعي/ الشجرة، وهـــو يرحل الآن في سفرةٍ متفردةٍ وكل خلية من خلايا جسده تتوحد ببقايا أشـــلاء الأم / التفاحة، والنبض الموحد لهم يتعملق في الفضاء صوتاً جميلاً كشـــدو العنـــادل، أو كخرير شلالٍ صغيرٍ، أو كمعزوفةٍ ناعمةٍ لراعٍ يجمع خرافه على أنغـــام المزمـــار ليخرس كل شيء عداه، الانفجار، الصعق، البروق، الرعود، الدخان، فقـــد صـــار الكون كله نبضاً أبدياً، ودفقاً سرمدياً، ورحما لإمرأةٍ / شجرةٍ لا يتوانى عن الخلق.

*

- كتبت عام ١٩٩٨.
- نشرت في العدد الثاني من مجلة (الأقلام) العراقية عام ٢٠٠٨.
- حازت على الجائزة الأولى لمسابقة دار الشؤون الثقافية العامة في وزارة الثقافة العراقية عام ٢٠٠٦.

حكاية

عروة بن الورد

وما جرى له في أحشاء

الغولة

صوت خارق يبعث عروة بن الورد إلى هذا العالم:

كانت الصحراء تسبح في غلسة ليل، القمر فيه شيخ محـــدودب الظهـــر، والـــريح صرصر عاتية تسف ذرات الرمال إلى السماء المرتقة بالنجوم حين شق جوانـــب البيداء صوت كالرعد.

- عروة.

تطامن الصوت وإنتشر صداه في الأرجاء، وفي لحظة انطفاء الصدى وسريان أولى لحظات الصمت، بان في رقعة العتمة فارس يمتطي فرساً شقراء، هتف.

- من ينادي أمير الصعاليك ؟

جاءه صوت مفعم بالشجن والأسف.

- فقراء تطحنهم الحرب ويقتات أبدانهم الجوع.

فسأل عروة بلهفة.

- أين..؟

- أبحث عنهم يا ابن الورد.

* * *

عروة يصاب بالدوار ويكبّر إله الصحراء:

سنابك فرسه تعانق طيات التراب، وهو منتصب على صهوة فرسه مثل أسد متحفز، رأى عن بعد مدينة تغرق في السراب وصليل الشمس، بيوتها مبعثرة كقطيع من الشياه أجفله ذئب مستوفز، وصل إلى بيت يشكل فم المدينة، ترجل عن صهوة فرسه وخطا صوب الباب الموارب وقد إرتسم مستطيل من الضوء أمامه، قال لنفسه.

– ما بال هذه القبيلة، لا إبل، لا شياه، إنه يومك يا عروة، أغث هؤلاء الفقراء.

تنحنح مشرئباً بعنقه، سمع صوتاً رقيقاً.

– تفضل أيها الضيف، على الرحب والسعة.

دخل الطوار، وفي وهلة خاطفة إرتسمت المعالم في حدقتيه... إمرأة جميلة تبدو أكبر من عمرها، وثلاثة أطفال يفترشون حصيرة عتيقة، ولا شيء في الحوش سوى بعض التخوت المتهرئة، والعيون الصغيرة الكأداء تبحلق نحو قدرٍ صغيرٍ فوق وجاقٍ صدئ بنارٍ كابية، همس عروة لنفسه.

– أهو زمن القحط ؟

صرخ أحد الأولاد.

– ماما...إني جوعان.

وبكى الرضيع الممدد على أحد التخوت وصار يصفع الهواء بكفيه، ثم سمع أكبر الأولاد يهمس لإمه بصوت كسير.

– أهي مرقة العدس أيضاً ؟

وأرسلت المرأة نظرة خجلى معتذرة صوب عروة ثم غالبت دمعة إنسابت عنوة نحو خدها وأطرقت، لم يستطع أن يحتمل أكثر فلملم عباءته وقام نحو القدر وكشف غطاءه، وحين عاين قعره صرخ كالرعد..

– إنه ماء مغلي حسب.

ثم بعد فترة صمت مشحونة بالذهول.

– يا إله الصحراء... ما بلية القوم؟!

* * *

عروة يتساءل: أين الرجال؟

وقف عروة فوق رابية تطل على قريةٍ كان الصباح فيها يصافح الوجوه والشرفات والأسطح، والحمائم المحلقة في الفضاء الخفيض فوق البيوت الكلسية المتراصة العابسة، كان الأطفال عبارة عن أسمال وجوع وحزن تتراكض بين البرك والخرائب والقمامات وهي تمارس طقوسها الصبيانية، والنساء متلفعات بالأسى والتيه وهنّ يمرقن نحو السوق، والسوق خواء يبتلع كل ما يمت إلى الحياة بصلة، ولكن ما أثار إنتباه عروة أن لا أثر للرجال، جال بعينيه في الحقول والمزارع المصابة بالإهمال والموات، ما رأى إلاّ الخراب، غمز فرسه فتهادت منحدرة نحو القرية، كانت فرسه وهيئته المميزة ورمحه المشهر، الثالوث الذي جلب انتباه الأطفال، فصار يتبعه فيلق منهم. سرّ عروة وفتر ثغره عن إبتسامة نابعة من أعماق قلبه المقهور وهمس..

– أمير الصعاليك صار أميراً للأطفال..!

فكر لفترة قصيرة ثم همس..

– كلاهما شيء واحد.. الصعاليك والأطفال، يشتركان في صفة واحدة، الطيبة والإيثار والبراءة.

وقف، توقف جيشه، إنتصبَ على صهوة الفرس، ودار حول محوره دورة كاملة وهو يتفحص الوجود، ثم أسر لنفسه.

– أنه زمن الغث يا عروة، الأطفال جياع، النساء واهنات، والشيوخ والعجائز أشرعة تمرق نحو الفناء، ولكن... لكن أين الرجال؟

* * *

عروة يدخل إلى مدينة ويتحدث مع صبي ظريف:

قادته السنابك نحو مدينة اتخذت من سفح جبل شاهق متكئاً لها، كان الكون يغرق في سراب كثيف من الغسق، والنسوة يجلسن أمام الأبواب وعيونهن شاخصة نحو الغرب وكأنهن يزفنَّ الشمس نحو مخدعها، والأطفال يلملمون بقايا ما علق في وجدانهم وذاكراتهم من يوتوبيات بنوها في خيالاتهم البريئة من مدنٍ وألعابٍ وأكلات، والشيوخ يتّسقطون الزمن على صدى حبات مسابحهم وصاياتهم التي تدفئ صدوراً ما كلّت ولن تكلّ من الاغتراف من صدى همسات قلوبهم التي تعدهم بالمقاومة ابد الدهر، ولكن ليس ثمة أثر للرجال... أسر عروة لنفسه.

- أهو زمن من دون رجال ؟

وقادته فرسه نحو أول بيت، ترجل ودخل، سمع صوتاً طفولياً.

- أهلاً عمو.

هرع الطفل إليه، قاسه عروة وهو يركض نحوه، في الحول الخامس تقريباً، عيناه جمليتان ولكنهما شاحبتان والعظام بارزة والساقان مجرد غصنين يابسين،... ألقى الطفل بنفسه فالتقطه عروة وضمه إلى صدره، غالب دمعة كبيرة حاولت الهرب من حدقتيه، لهج الطفل بصوتٍ واجفٍ.

- أني خائف.
- مم..؟
- من الليل.
- أين أبوك؟
- ذهب إلى الحرب.

ثم استطرد وهو يلاعب الهواء بقبضتيه.

- أخذ رشاشته وذهب.

ردد عروة دهشاً.

- رشاشة! أهي أسم جديد للسيف.

سأل الطفل مستغرباً.

- ما هو السيف..؟

سحب عروة سيفه من غمده ولوح به في الهواء.

- هذا هو.

ضحك الطفل ملء شدقيه بنبرة صافية وهمس من خلال شهيقه.

- أنه يشبه سكين المطبخ..

ثم أقترب منه ولمس مقبضه وإستتلى.

- ولكنه كبير جداً.

وبعد وقفة نبر بجد لا يناسب عمره.

- إنها رشاشة... رشاشة.

ثم اتخذ وضعية الرامي، ووضع أخمص رشاشته الموهومة على كتفه وصاح.

- إنها طاق... طاق..

غص الطفل في كركرة حقيقية لما رأى دهشة عروة، صفق بيديه فرحاً ثم قال.

- إنها سلاح يقتل الناس.

- تعني أنها حسام ورمح هذا الزمان؟!.

وشمل مدخل البيت بنظرة فاحصة وهمَّ بضم الطفل بين ذراعيه حين أتاه صوت من جوف البيت.

- أهلاً بالضيف الكريم.

وجاس المدخل الظليل بعينيه الصقريتين، ثم أبصر الكهل الذي أحتل فسحة الباب.

- أهلاً بك.

أدخله الكهل إلى الباحة، كان بناءً عتيقاً يستوطنه الفقر، تبع الكهل إلى جوف غرفة تتصدر البناء المتداعي، أشعل الكهل فتيل المصباح النفطي وهو يردد.

- إسترح.. إسترح.. حياك الله.

جلس عروة على حصيرةٍ باليةٍ، لبد الطفل في حضنه يتأمل عمامته ولحيته

المخضبة بالحناء، وبعد برهة أغمض عينيه وتوسد الصدر الدافق للفارس، التفت إلى الكهل ولهج بحيرةٍ وتساؤلٍ ولهفة.

- ما أمركم يا قوم؟

أجابه الشيخ بأسى.

- حال الدنيا..
- أهذه دنياكم..؟
- بالطبع لا..
- إذن ما الخطب؟
- إنها الحرب..
- أية حرب..؟
- إنها نفس القصة المتكررة في كل الأزمنة.. فالدنيا عبارة عن طرفي حبل يمسك أحدهما قابيل والأخر هابيل..
- نوّرني بالله عليك.
- أسمع يا أخي.

* * *

عروة يدخل أحشاء الغولة:

ودخل عروة أحشاء المدنية، كبّر إله البيداء وهو يتأمل بفمٍ فاغرٍ... عمارات شاهقة تناطح الغيوم، شوارع مبلطة تنز منها أسياخ حامية تحرق الترس والبدن، سيارات مركونة على الأرصفة... إنعطف نحو اليمين وهو يتسمع منتشياً سنابك فرسه على بلاط الرصيف، أوقف فرسه وإنتصب على الصهوة والسؤال يكبر في وجدانه.

- مدينة بلا ناس...

ثم أجال نظره.

- من يعيش بها إذن..؟

وانتبه إلى أذن فرسه المنتصبة، فربت على رقبتها وهمس من بين أذنيها.

- ما الخطب..؟

ثم حوّل نظره مستوفزاً.

- أهي مدينة أشباح؟

- بل هي مدينة عامرة.

إلتفت، لم يجد أحداً على الرصيف.

- إنني هنا، خلفك.

سحب لجام فرسه وإستدار، وجد شاباً لائطاً خلف عمود الكهرباء، قال له.

- لم أنت مختبئ...؟

- إنني أتقي الرصاص..

- آه.. فهمت... طاق.. طاق..

أبتسم اللائط لوهلةٍ قصيرةٍ، ثم نبر..

- من أنت..؟ وما هذه الثياب، هل أنت متنكر بزي فارس من العصور القديمة؟

- متنكر... عليك اللعنة.. أنا عروة بن الورد..

- أنا آسف.. لم أقصد الإهانة... ولكنك قلت عروة بن الورد؟!!

- أجل... أمير الصعاليك...

- معقول..!؟

واصطلى الجو بأزيز الرصاص وصدى إنفجارات قريبة، تطايرت موجودات الشارع في الفضاء بإحتفالية نادرة جعلت عروة يفكر في ما يفعله سلاح هذا الزمان من كوارث ودمار، وحين هدأت الزوبعة، سأل.

- ولم تحاربون... ومن تحاربون..؟

لم يجد أي جواب، وحين ألتفت صوب صاحبه وجده ممدداً على الأرض من دون أطراف وهو يسبح ببركة من الدماء وقد فتح فاه وكأنه يريد أن يقول شيئاً..

- ما هذا الجنون..؟

وإستدار عروة يتملى المكان وقد تملكه الأسى، وكبر تساؤله وهو يحتوي في

بصيرته صورةً لشارع يصطخب بالضجيج والفوضى والدمار، والأشلاء تتوسد الأرصفة ومداخل العمارات، وفجأة سمع صرخة.

– قف حيث أنت وإلا قتلتك.

تلفت جهة الصوت، أبصر أحدهم باركاً على الرصيف والطاق طاق مركونة على كتفه، وثمة آخر يقف إلى يمينه وثانٍ على يساره، أمسك عروة لجام فرسه، ومن ثم وبقفزة واحدة أستقر جنب فرسه ومد يده اليمنى نحو مقبض حسامه، سمع صوت أحدهم..

– ألا تعتقد أن هذا أجمل بوستر...؟!

وقال الآخر..

– يبدو هذا الرجل من زمن آخر..

وسمع صرخة آمرة من البارك.

– لا تتحرك.

خطا عروة نحو الأمام، صرخ الآخر..

– قف أيها الحقير.

غامت الدنيا في عيني أمير الصعاليك وطفر الغضب إلى شفتيه فارتجفتا بشدة فبادر إلى امتشاق سيفه بلمح البصر، ونزل على المسلّح نزول الصاعقة وجندله، سمع صوت الآخر..

– قتله الكلب... أحصده.

سمع الثاني.

– دعنا نتسلى قليلاً..

سأله الأول.

– من أنت... هل تظن نفسك في حفلة تنكرية؟

وقف عروة، جالت عيناه تتقصى الأرجاء ثم تسمرت على الرجل الذي جندله، وهتف.

– أنا عروة بن الورد، أمير الصعاليك، أنا شاغل الصحراء قاصيها ودانيها، أنا

مغيث الفقراء والمعوزين في أزمان الجدب.

- انه صعلوك.

وضحكا حتى انقلبا على قفيهما، فغضب عروة، وعندما يغضب أمير الصعاليك يوزع الموت بسرعة البرق، فما انتهى من الأول حتى تسمّر وهو ينظر الثقوب العديدة التي انفتحت في صدره وبطنه والدم يسيل منها مثلما ينز الماء من ساتر ترابي يحتجز ماء الجدول، أحس بالوهن يتسرب إلى يده المشهرة بالحسام، فوقع الأخير من يده وعينا الفارس تحتويان صورة رجل بيده طاق.. طاق والنار مثل الحمم أو السعار أو أسياخ مدماة تخترق بدنه، ثم أنسدل غمام أسود كالقطران أمام عينيه ومن ثم...

* * *

الصوت الخارق يأمر عروة بالعودة ولكن..؟

وفجأة لعلع صوت صمّ أذن المسلّح الذي حسبه قصف رعد رغم أن سماء المدينة كانت صاحية.

- عروة...

وصدر عن جسد عروة، الواقف كالتمثال على الرصيف، صرخة.

- من يناديني؟

- عد إلى مكانك يا ابن الورد.

وأمام ذهول المسلّح إختفى الجسد بغتة كفص الملح.

* * *

هامش صغير في جريدة يومية صدرت في ١٦ /شباط/ ٢٥٨٤:

أثناء التنقيب عن الآثار في المدينة القديمة شرقي المتوسط عثرت بعثة آثارية على بقايا هيكل عظمي وبجانبه قطعة من حجر الحلان نقش عليه (**هنا يرقد عروة ابن الورد... أمير الصعاليك**) وعند فحص العظام في المختبرات تبين أن أغلبها مخرمة وخاصة عظام الأضلاع والكتفين. وعند التدقيق عن ماهية هذه الثقوب وجدتها شواهد رصاصات سلاح قديم موجود نموذج منه في متحف المدينة أسمه رشاشة (الكلاشنكوف) وهو من الأسلحة الشائعة في نهاية القرن العشرين وهنا وقع التراثيون والأدباء والمؤرخون في حيرةٍ شديدةٍ وهم يتساءلون.

- لمن هذا الهيكل العظمي، أهو لعروة بن الورد حقاً...؟

وهم يعلمون علم اليقين أنه عاش في جزيرة العرب شرقي البحر الأحمر.

*

*** كتبت عام ١٩٨٠.**

- **نشرت في العدد ١٦٣ من جريدة (الحدباء) الموصلية الصادرة عام ١٩٨٤.**

أرض من عسل

من يعاينه لأول وهلة لا يفارقه تخمين آخر، سوى أنه، بثيابه النظيفة ولحيته الشائبة المشذبة وشعره الفضي المسدل المسرح وبدنه الشبحي، أكثر من إنسان عصابي مصاب بالذهان، ويتعزّز تخمينه حين يلمح الحقيبة العتيقة التي افتقدت لونها وهي تتأرجح تحت إبطه وسيورها الجلدية تتزحلق ذاهبة وآتية ما بين الجنب والصدر، وساعده الأيمن يلتصق ببدنها الجلدي المتهرئ بحنو طائر الحسون،.... والرائي لهذا الكائن ألأنسي، الذي يسحل جسده وروحه على الجزرة الوسطية المعشبة يتوقف بين الفينة ورديفتها رامقاً الأشياء بنظرة زاخرة بالدهشة وعدم التصديق، وخاصة حين تعانقه الجملة على شاشة كبيرة على يسار أحد الشارعين وهي تتوامض عالقة على جملة (أهلاً بكم في بغداد.... دار السلام)، يخونه الظن حين يحسب أن هذا الكهل الذي تتسارع حيواته نحو عقده الستيني، إما فاقداً لعقله، أو عاشقاً لحبيبة عصية ممهورة بالمجهول، أو فيلسوفاً يبحث عن نتيجة لفرضية مستحيلة، أو دعيّاً حريفاً للفرادة والغرابة، أو ربما أضاع ذاكرة يتوسل النهارات ويناجي الليالي علهّما يعيدان إليه وعيه المفتقد ويؤوب إلى صحوه المستلب... وبعد أن يتعب الرائي من تلاطم تخميناته الشائهة يتنكب الرصيف أو الترام أو دراجته الهوائية أو زلاجته الكهربية ويذهب إلى غايته داخل حشايا مدينته الساحرة كحورية تجدل أظفار شعرها المسرّح والمعطر بروح الشمس الفتية الحيية. أما هو، فلّما يزل أسير ذلك السطر الذي لم يقفل بنقطة في آخر مشواره ومنحه هذه الفرصة النادرة، مستلاً من زمن لا تفاصيل مادية فيه، ومكان لا تسعه الآفاق، التي لا يمكن لعقل مهما أوتي من قابلية للتخيّل إستغوار كنهها، ليجد نفسه بغتة في ميدان

قوامه شارعان تفصل بينهما جزرة وسطية وقامته متعامدة مع عشبها وخلف ظهره فضاء رائق تخيم عليه سماء لازوردية تطال أذيالها نهايات أشجار تسور الشارعين وبتساوق مهندم، والهواء حوله مشبع بشذا رائحة زكية هي مزيج من أوراد شقائق النعمان والجوري والقداح التي تفغم الأنوف والطوايا، فتجعل الوجوه المتخاطفة على جانبي الشارعين على الرصيفين، أو الشاخصة خلف زجاج السيارات، أو المطلة من الترام.... متألقة، باسمة، صبوحة، همس لنفسه ودخيلته معجونة براحة عجيبة.

- أين أنا.؟!.

كان الصباح يحمّم البيوت المتكاتفة على جانبي الطريق، بيوت صغيرة بواجهات فاخرة، وحدائق غنّاء تدرج على أفياء وأفنان أشجارها الشحارير والعنادل والحمام، وتتصاخب على أفاريز أسطحها القرميدية اللامعة كراديس الحساسين، والذهول يطّوق ذاته ويجعله يحاول أن يلّم كل الموجودات الغارقة في الشفافية والناطقة بالسحر والجمال بلمحة واحدة، وتتهدج ذاته....

- هل هذه بغداد حقاً..؟!.

وقبل أن تطأ الكينونة أديم التقصي المضني بحثاً عن الإجابة سمع نواحها الفاجع الذي كان في خوالي أيامه يسحره بنحيبها الصادق الملتاع ....

- كوكوختي.....

فتمثّل أمامه وعلى الفور، والزمن يركض في داخله، صديقه الأثيري، الفنان التشكيلي، صنو وجدانه، والمولع برسم العصافير، وتحديداً القبرات الرائقات، و"البيبي متو" اللجوج الصادح، والفاختة الباحثة عن ...

- وين أختي؟.

التي غابت في غابة خمبابا، وما عاد لها أي ذكر، فكيف لا يجن فنانه الأصيل، وهو يتسقط بسليقته وحشيته وألمه الكاوي، خله الأنسني وهو يلقي بعقله الذي يميّزه

عن سائر الزاحفات على الأديم والمحلّقات في شعف السماء والطامسات في غياهب اليم،... في مستنقع التيه، ويتقّنع سمة الضواري والكواسر، فصار القنص والافتراس ديدنه اليومي ولغته الأثيرة، فزاحمت الدماء الأنهار في منابعها ومصابها، وأجهز على كل ما هو جميل ورائق وحيوي، في حّيز زمني لا يتعدى عدد أصابع الكفين من الساعات، فتحول كل ما لمسته يداه إلى خراب وهباب ودخان.... فكيف لا يرسم الفنان العصافير والحمائم والعنادل، بعدئذٍ، وهي مجرد جماجم تتسربل بالعظام الهشة المنخورة عوض الريش الزاهي الزاهر، وحشر نفسه في مرسمه الفذ الذي ابتناه من لبن اليأس وصلصال النكوص وماء الاندحار، وتجبّب الكآبة المزمنة، ورديف شهيقه وزفيره شاشات تعرض وهي مكللة بالشنار صور صاحب الجرار الأربعين ورهطه وهم يقضقضون بنيان حضارة سرمدية رسخّت في وجدان التأريخ رموز العدالة، وابتكار الكتابة، وتدوين بكر الملاحم في العالم، وإجتراح إحدى أهم عجائب الدنيا، وتشييد أولى محافل الحكمة، وأحلى أسم لأحلى جامعة، وان شئنا أن نعدد مزايا وأفضال أهل هذي الأرض فسيجف الحبر في المداد، ناهيك عما هو مطمور في طين الأهوار وفي حنايا التراب الحري للسهوب، والحجر الصوان الجلمود الجبلي، ليعم في هذه الأرض المكللة بالحياة الدافقة الخراب وينعب على جنبات تلك القاعات الناطقة بالتماثيل والرقيمات والأختام وكل عنوان من عناوين زهو هذا الوطن البهي بوم الضياع .... كيف لا يصّفد الفنان الذي عشق هذا البهاء ريشته في زنزانة القنوط والخيبة.....

- متى ستستعيد الطيور أرياشها؟.

سأل صديقه علّه يفلح في انتشاله من بئر التيه.

- ضاعت أرياشها مثلما أضاع الرافدان عشبة خيبة كلكامش.

ناكده، ربما يدغدغ روح صديقه المحبة للمحاججة.

- والأمل؟.

- ليس ثمة أمل.

- أتعرف كونستانتان جيورجيو؟.

همهم بملل.

- الساعة الخامسة والعشرون.

- قال... الأمل عشبة تنبت حتى بين..

قاطعه شارداً.

- القبور.

وغاص الفنان في بحر أوتونبشتم الذي اختاره طائعاً بعد أن فقد القدرة على التجديف فترك أمر زورق رحلته نحو شمس ساطعة سيحملها على كتفه العضل ويمنح الخلود إلى أهل أوروك في كفة الغيب وسامر صديقه أورشنابي يحدثه عن البطل الذي أضاع العشبة إلى الأبد.

- أسرع ... سينطلق الترام.

إبتسم بوجه الرجل الأنيق الذي يخزره بدهشة، ولكنه ارتبك حين اكتشف أن تلك الابتسامة العريضة المشرقة على الوجه الصبوح كانت لرجل يجاوره، فصعد درجتي الترام وجلس لصق كهل، كانت ثمة موسيقى هادئة تتهادى مدغدغة الفضاء الأبيض وثمة دفء يتغلغل في غضاريف جسده فأراح عجيزته على المقعد الوثير ثم أنشأ يتأمل جليسه المنهمك في مطالعة كتاب بغلاف زاهٍ تتصدره في الزاوية اليمنى صورة المؤلف، صديقه الروائي وفي المتن عنوان الرواية الرومنطيقي الذي أحبه، ومن خلاله غاص حينها في تفاصيل الوجه الوسيم بسالفيه الأشيبين وهو يسطر رحله شخوصه التائهين في صحراء المجهول.... ولكن ما أربكه وجعله ينتفض هاتفاً بجليسه.

- ما هذا ؟!.

بيد أن الكهل لم يجبه، بل حتى لم يلتفت إليه.

- كيف تكون الرواية تحت هذا التصدير؟!.

ثم قرأ العبارة بصوت جهير.

- روايات كلاسيكية.

وتابع احتجاجه.

- يا رجل... إن الروائي لم يرحل عن الدنيا، ثم أن الرواية هذه لفتت انتباه القراء والنقاد على حدٍ سواء، وأثارت زوبعة من النقاشات نظراً للطريقة الفنية التي صاغ بها صديقي الروائي نسيجها...

وبعد أن فاوض صدره المتهدج براحة قصيرة أكمل.

- إنها رواية تستلهم الحداثة بكل مكوناتها وحيثياتها.

وحين استشف تأثير كلامه الحماسي على السامعين، أحس أن الجميع يتجاهله، فثمة أمامه شاب وشابة يتهامسان والبشر يطفر من وجهيهما، وفي الجانب الأيسر ثمة مراهق في إبهامه حلقة بلاستيكية متوهجة بألوان جذابة تتساوق ألوانها مع حلقتين أصغر على صلمتي أذنيه وبدنه يرتعش مهتزاً بتأثير ما يسمعه، وخلفه ثمة عجوز سبعينية غافية، فعاود سؤال جليسه.

- كانت فتحاً في السرد الحديث.

جليسه لما يزل منكباً على الرواية، مد كفه وهزه برفق من كتفه، وهمس.

- إني أكلمك يا رجل!.

لم تند عن جليسه أي رد فعل، فرفع كفيه إلى مستوى عينيه وهمس ذاهلاً.

- ما باله..؟!.

وسمع لغطاً متصاخباً يسبق ظهور أربعة شبان متألقي الوجوه بثياب رياضية، وهم فيما يبدو يتممون حديثاً سالفاً، وحين إستووا جالسين متقابلين على مقاعدهم هتف أولهم.

- إنه لاعب زمانه.

أيده الثاني.

- إنه لا يبارى.

إستطرد الثالث.

- فنان حقيقي.

فيما همس الرابع.

- قرأت عنه في الشبكة العنكبوتية، إن مواصفاته تشبه تماماً مواصفات لاعب ملأ الملاعب فناً راقياً، إسمه نشأت أكرم...

إستطرد الأول بحماس.

- جدي حدثني كثيراً عن هذا اللاعب.

فغر فاه....!!!!، نهض من مقعده واتجه ناحيتهم، وقف إزائهم وسأله.

- ماذا تقول؟!.

لم يلتفت إليه أحد، فردد.

- جدك؟!!.

وفكر... أي جد، إن نشأت موجود، وفي زمني هذا، إني في حيرة، ماذا يحدث لي؟، قارئ الرواية ما أعارني أي اهتمام، وهؤلاء الشباب لا يحسون بوجودي....، إنحنى على الأول ومسّد شعره الأكرت، لم يعره أي اهتمام، وفعل ذلك مع الأربعة وتلقى ردة الفعل نفسها، فأيقن أنه.....

- غير محسوس.

ردد العبارة لأكثر من مرة، فداهمته غصة مريرة، ولكن ما يترادف ويتعاقب على زجاج الترام من مناظر خرافية في جمالها وروعتها، أبدلت الغصة إلى آهة فرح، فتذكر قرينه الفنان التشكيلي...

- لقد نبتت عشبة الأمل يا صاح.

سمع حسرة صاحبة ببحتها المميزة.

- القبور تبقى قبوراً.

هتف مسكوناً بفرح من إستوعب حالته تماماً وهو يتسربل في أعطاف مدينة توائمت مع الشمس.

- لقد نبتت وأزهرت مدناً من فرح.

وأمام بناية جميلة صاخبة مزدهية بقامات غضة بريئة، توقف الترام فترجل وهو يصدم الأجساد وارتداه فيض من بهجة طفولية آسرة فأنشأ يصدم هذا وذاك من المارة، وأمام الباب المفتوح المحّدد بأزهار الدفلى الذي تعلوه قطعة تعلن عن مدرسة ابتدائية وقف يتأمل التلاميذ الصغار بابتسامه جعلته نقياً كشمس الشفق الربيعي.

وبغتة انطلق الأطفال ينشدون:

(أنا من العراق

أنا عراقي

العراق وطني

فيه أبي وأمي، فيه أختي وأخي) "*"

طرب للصوت الملائكي، فاجتاز البوابة وانشد.

(فيه أهلي وبيتي، وفيه أصدقائي)

ثم أبصر طفلة تشير إليه.

- انه يعرف النشيد.

كاد يرقص من الفرح وهو يحث الخطى نحو الطفلة ويمد كفه، فمدت كفها اللدنة وأمسكت بكفه، فسألها بحنو أبوي.

- هل ترينني؟.

- نعم جدو....

ثم هتف بقية الأطفال، بصوت منغم.

- ونحن أيضاً نراك.

فهتف وقد تعتعه الفرح.

- هيا نكمل النشيد.

فأنشد الأطفال:

(أنا من العراق

أنا عراقي

العراق وطني)

وأنشد هو:

(العصفور يحب عشه الذي يعيش فيه)

وأكمل الأطفال:

(وأنا أحب العراق، مثلما أحب بيتي

وأحب العراق، مثلما أحب أهلي....)

وارتفع جسده بفعل قوة مجهولة، ونظر من علٍ، وهو مسكون تماماً بالنشوة، فهتف الأطفال.

- إنه يطير!.

وهتف أكبرهم سناً.

- كيف يطير بلا جناحين؟!.

والقوة المجهولة تدفعه نحو الأعلى برفق، وهو يكمل النشيد:

(وأحب أهل العراق)

وتهتف المدينة بأسرها.

(العراق وطني)

ومن الحالق، كانت آخر ما احتوته مقلتاه أرض من عسل يدرج فيها نحل لا يستكين.

****

"*" : نشيد لتلاميذ الصف الثاني ابتدائي بعنوان **(العراق وطني)**.

*

- **كتبت عام ٢٠٠٧.**

هيثم بهنام بردى

قاص وروائي وكاتب أدب طفل

الاسم الكامل: هيثم بهنان جرجيس بردى.

- → ولد في العراق/ عام ١٩٥٣.
- → عضو اتحاد الأدباء العراقيين.
- → عضو اتحاد الكتاب العرب.
- → عضو نقابة الفنانين العراقيين.

- عضو فخري مدى الحياة في دار نعمان للثقافة اللبنانية.
- عضو المجلس المركزي للإتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق.
- عضو المكتب التنفيدي للإتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق.
- نائب الأمين العام للإتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق عن الثقافة السريانية.
- عضو هيئة تحرير مجلة بانيبال.
- عضو هيئة تحرير مجلة العائلة.
- عضو هيئة تحرير مجلة شراع السريان.

- **حضر وشارك في مهرجانات وملتقيات عديدة أبرزها:**

١. الندوة العربية الأولى للقصة الشابة التي أقامتها مجلة الطليعة الأدبية في بغداد عام ١٩٨٠.
٢. ملتقى القصة العراقية في بغداد عام ١٩٩٥.
٣. ندوة الرواية العربية في بغداد عام ٢٠٠٢.
٤. الملتقى الثالث للقصة القصيرة جداً في حلب عام ٢٠٠٥.
٥. الملتقى الرابع للقصة العراقية (ملتقى د.علي جواد الطاهر) في بغداد ٢٠٠٨.
٦. مهرجان المربد ولعدة دورات.
٧. مهرجان الجواهري عام ٢٠١٠.
٨. مؤتمر ثقافة الأطفال الدولي الأول في بغداد عام ٢٠١٠.
٩. الملتقى القصصي الأول لمحافظة صلاح الدين عام ٢٠١١.

التكريم:

١. منح شهادة تقديرية لمشاركته في الملتقى الثالث للقصة القصيرة جداً في حلب عام ٢٠٠٥.
٢. منح شهادة تقديرية من دار الشؤون الثقافية العامة في وزارة الثقافة

العراقية عام ٢٠٠٦.

٣. منح شهادة تقديرية من دار نعمان للثقافة عام ٢٠٠٦ بمناسبة فوزه بجائزة ناجي نعمان اللبنانية العامية عام ٢٠٠٦.

٤. منح شهادة تقديرية من مؤتمر الأدب السرياني الثالث المنعقد في أربيل عام ٢٠٠٦.

٥. منح شهادة تقديرية من الملتقى الرابع للقصة القصيرة (ملتقى د. علي جواد الطاهر) عام ٢٠٠٨.

٦. منح شهادة تقديرية من مؤتمر الأدب السرياني الخامس المنعقد في السليمانية عام ٢٠٠٨.

٧. منح شهادة تقديرية من دار عراقيون للصحافة والنشر في الموصل عام ٢٠١٠.

٨. منح شهادة تقديرية ودرع الإبداع من مركز دراسات الموصل في جامعة الموصل عام ٢٠١٠.

٩. منح شهادة تقديرية من مؤتمر ثقافة الأطفال الدولي الأول الذي عقدته دار ثقافة الأطفال في بغداد عام ٢٠١٠.

١٠.منح شهادة تقديرية من إذاعة صوت السلام من بغديدا (قره قوش) عام ٢٠١٠.

١١. منح شهادة تقديرية من وزارة الثقافة – دار ثقافة الأطفال عام ٢٠١٠ في العيد الحادي والأربعين لتأسيس الدار اثر فوزه بالجائزة الثانية لمسابقة الدار عن النص المسرحي.

12.تم تكريمه من قبل مركز السريان للثقافة والفنون في قره قوش/ قضاء الحمدانية/ محافظة نينوى في احتفائية المركز بتأريخ ٢٠١١/٥/٢٨ به وبالأديب طلال حسن الفائزين بالجائزة الأولى والثانية في مسابقة دار ثقافة الأطفال عام ٢٠١٠.

١٣. تم تكريمه من قبل وزارة الثقافة العراقية بدرع الوزارة وشهادة

تقديرية وكتاب شكر وتقدير لحيازته جائزة عربية (جائزة ناجي نعمان اللبنانية) في الإحتفائية التي أقيمت في ديوان الوزارة بتأريخ ٢٠/تموز/٢٠١١..

١٤. منح شهادة تقديرية من قبل الملتقى القصصي الأول في محافظة صلاح الدين الذي عقد في ٢٥/ تموز/٢٠١١.

→ **أصدر الكتب التالية:**

١. الغرفة ٢١٣/ رواية – مطبعة اسعد– بغداد١٩٨٧.

٢. حب مع وقف التنفيذ/ قصص قصيرة جداً – مطبعة شفيق– بغداد ١٩٨٩.

٣. الليلة الثانية بعد الألف/ قصص قصيرة جداً– منشورات مجلة نون– الموصل ١٩٩٥.

٤. عزلة انكيدو/ قصص قصيرة جداً– مطبعة نينوى– بغداد ٢٠٠٠.

٥. الوصية/ قصص قصيرة– دار الشؤون الثقافية العامة، وزارة الثقافة– بغداد ٢٠٠٢.

٦. الحكيمة والصياد/ مسرحية للفتيان– مطبعة بيريفان– أربيل ٢٠٠٧.

٧. الذي رأى الأعماق كلها/ كتاب انثيالات– مطبعة ميديا– أربيل ٢٠٠٧.

٨. مار بهنام وأخته سارة/ رواية– مركز أكد للطباعة والإعلان– عنكاوا– أربيل ٢٠٠٧.

٩. قديسو حدياب/ رواية– مركز أكد للطباعة والإعلان– عنكاوا– أربيل ٢٠٠٨.

صدرت باللغة السريانية عن دار (منارة) في أربيل عام ٢٠١١ ترجمة الأديب كوركيس نباتي.

١٠. تليباثي/ قصص قصيرة– دار نعمان للثقافة– بيروت ٢٠٠٨.

صدرت طبعتها الثانية عن دار الينابيع بدمشق عام ٢٠١٠.

١١. التماهي/ قصص قصيرة جداً– دار الشؤون الثقافية العامة، وزارة الثقافة–

بغداد ٢٠٠٨.

١٢. قصاصون عراقيون سريان في مسيرة القصة العراقية/ إعداد وتقديم- المديرية العامة للثقافة والفنون السريانية_ أربيل ٢٠٠٩.

١٣. القصة القصيرة جداً في العراق/ إعداد وتقديم- المديرية العامة لتربية نينوى- الموصل ٢٠١٠.

١٤. مع الجاحظ على بساط الريح/ سيرة قصصية للفتيان- دار رند للطباعة والنشر والتوزيع- دمشق ٢٠١٠.

١٥. القصة القصيرة جداً- الأعمال القصصية ١٩٨٩-٢٠٠٨- دار رند للطباعة والنشر والتوزيع- دمشق ٢٠١١.

١٦. نهر ذو لحية بيضاء- مجموعة قصصية- دار رند للطباعة والنشر والتوزيع- دمشق ٢٠١١.

→ **كتب عن تجربته في الكتابة كل من:** د. عمر الطالب، د. محمد صابر عبيد، د. فاضل التميمي، د.نادية هناوي سعدون، د. ثائر العذاري، د.سوسن البياتي، د. سالم نجم، موسى كريدي، إبراهيم سعدالدين، أمجد توفيق، يوسف الحيدري، جاسم عاصي، سليمان البكري، ناجح المعموري، عبد الستار البيضاني، صباح الأنباري، زهير الجبوري، أنور عبد العزيز، محمد الأحمد، ازدهار سلمان، جاسم خلف الياس، بولص آدم، عباس خلف، علي محمد الحلي، شاكر سيفو، إسماعيل عيسى، جمال نوري، حميد حسن جعفر، حمدي الحديثي، ناظم السعود، علوان السلمان، سمير إسماعيل، مثنى كاظم صادق، وعدالله ايليا، ، إيمان عبدالحسين، سعدون جبار البيضاني .... وغيرهم.

→ أفرد السيد إسماعيل فتحي حسين مفصلاً من مفاصل رسالته لنيل شهادة الماجستير من جامعة الموصل عام ١٩٩٧ باللغة الإنكليزية برسالته الموسومة:

"For grounding in Arabic Written Discourse With Special Reference To English"

وترجم له فيها قصة (العيون) من مجموعته القصصية (حب مع وقف التنفيذ) مع دراسة عن اللغة في هذه القصة.

→ ترجمت بعض قصصه إلى اللغة الإنكليزية والهولندية والفرنسية.

→ ورد اسمه في كتاب (موسوعة أعلام العراق في القرن العشرين- الجزء الثالث- صفحة ٢٨١) الصادر عن دار الشؤون الثقافية العامة عام ١٩٩٨ لمؤلفه الأستاذ حميد المطبعي.

→ ورد اسمه في كتاب (موسوعة أعلام الموصل في القرن العشرين – صفحة ٦٠٠) الصادر عن وزارة التعليم العالي والبحث العلمي/ جامعة الموصل – مركز دراسات الموصل- عام ٢٠٠٧، لمؤلفة الأستاذ الدكتور عمر الطالب.

→ أصدر الأديب خاص ايشوع بربر كتابا عنوانه (حبة الخردل) وهو دراسات نقدية لنقاد وقصاصين وشعراء تناولوا تجربته في كتابة القصة القصيرة جداً مع مقدمة ضافية بقلمه. وأعاد طبعة ثانية وصدر عن دار رند للطباعة والنشر والتوزيع في سوريا عام ٢٠١٠.

→ أفرد الباحث جاسم خلف الياس فصولاً من رسالته (شعرية القصة القصيرة جداً) عن تجربته في كتابة القصة القصيرة جداً والتي نال فيها شهادة الماجستير من كلية التربية – جامعة الموصل، عام ٢٠٠٧.

→ تناول الباحث فرج ياسين أحمد بالتحليل قصته (الأقاصي) في أطروحته "أنماط الشخصية المؤسطرة في القصة العراقية – دراسة تحليلية " والتي نال بها شهادة الدكتوراه من كلية التربية – جامعة تكريت عام ٢٠٠٦.

→ **الجوائز:**

– حائز على جائزة ناجي نعمان الأدبية اللبنانية لعام ٢٠٠٦.

– حائز على الجائزة الأولى في مسابقة القصة القصيرة التي أقامتها دار الشؤون الثقافية في وزارة الثقافة العراقية عام ٢٠٠٦ عن قصته القصيرة (النبض الأبدي).

– حائز على الجائزة الثانية في مسابقة وزارة الثقافة لمسابقة أدب الأطفال/ دار

ثقافة الأطفال/ جائزة (عزي الوهاب للنص المسرحي) عام ٢٠١٠ عن مسرحيته الموسومة (العشبة).

- حائز على الجائزة الثانية في مسابقة الملتقى القصصي الأول في محافظة صلاح الدين عن قصته الموسومة (الرسالة).

الفهرست:

المقدمة/

الملاذ السردي وطعم الحكاية

هيثم بهنام بردى يحرث أرضاً من عســـل

محمد صابر عبيد

القصص/

- **حكاية.**
- **الرسالة.**
- **النبض الأبدي.**
- **حكاية عروة بن الورد وما جرى له في أحشاء الغولة.**
- **أرض من عسل.**